وزارة الثقافة
المركز القومى للسينما

مهرجان
الإسماعيلية
الدولى
الخامس
للأفلام التسجيلية والقصيرة
٢٠٠٢

ميجيل ليتين

مغامرة ميجيل ليتين السرّية فى تشيلى

تأليف: جا[illegible]

ترجمة: **على درويش**



إصدارات المركز القومى للسينما

مغامرة ميجيل لينين السرية فى شيلى

تأليف
جابرييل جارسيا ماركيز

ترجمة
على درويش

مقدمة

«جـدي من بيت ساحـور» هذا مايقوله بطل هذا الريبورتاج، المخرج السينمائي التشيلي ميغل ليتين.

الجالية الفلسطينية في التشيلي، من أقدم جاليات بلاد الشام التي وطئت الأراضي الأمـريكية اللاتينية، يعود تاريخ هجراتها إلى نهايات القرن الماضي، أوائل هذا القرن، انخرطت هذه الجالية في معترك الحياة اليومية في تشيلي، شأنها في ذلـك شأن غيرهـا من الجـاليات السورية واللبنانية في العديد من بلاد المهجر، كلها لعبت دوراً هاما في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والأدبية. . . في تلك البلدان، وفي معـترك الفـرز الـطبقي وبحكم تبـاينـات المصـالح الاقتصادية انفرز المهـاجـرون وبحسب مصالح طبقاتهم، حيث برزت رموز شهيرة في الحـركـة الشـورية في أمـريكـا اللاتينية والوسطى خاصة في نيكاراغوا والسلفادور، وبرزت رموز مثلث قوى الاحتكار ومصالح برجوازيات بلدانها، ومنهم من تقلدوا مفاتيح الحكم في تشيلي أيضا فقد حدث فرز في الجالية الفلسطينية فأصحاب رؤوس الأموال والمسيطرون على تجارة النسيج، وقفـوا الى جانب الانقـلاب العسكري الذي قاده أوغوستو بينوشيت، وأطاح بحكومة الوحدة الشعبية برئاسة سالفادوز الليندي، وفي المقابل، بطل هذه القصة مثال حيٌّ على سلالة المهاجرين من أنصار حكومة الوحدة الشعبية، وأنصار الديمقراطية في تشيلي.

في السابق عرف التحقيق الصحفي على أنه محاولة لدس الأنف فيما هو أكثر من الصحافة، ومع الزمن تحول هذا إلى نوع من الأدب القصصي، إن سمات الأدب الذي يتطلبه العصر الحديث، عصر التغييرات الاجتماعية والتكنولوجية الهائلة تتمثل في الأسلوب السريع الخلاق المكتنز بالمعلومات المكثفة، ومن الملاحظ أنه في الحقب الأخيرة من هذا القرن استحوذ الأسلوب الصحفي حيزا أكبر في لائحة الكتب المباعة.

هذه الوقائع يقدمها لنا غارسيا ماركيز، كواحد من أكثر الصحافيين قدرة في عصرنا، والذي لم يفقد استخدام أسلحته القديمة «رغمًا عن جائزة نوبل للآداب، حسب فكاهته الخاصة».

ملاحظة:

آثرت أن أبيّن بعض الاعلام والأماكن المذكورة في هذه القصة، في الهامش

تنويه للقارئ

في أوائل عام ١٩٨٥، قام المخرج السينمائي التشيلي ميغيل ليتين، المدرج اسمه في لائحة الخمسة آلاف منفي المحظور عليهم، حظراً باتاً العودة الى وطنهم، بزيارة التشيلي سراً، بعد أن غير ملامح وجهه، وطريقته في الملبس، والحديث، وبأوراق ثبوتية مزيفة، وبمساعدة وحماية المنظمات الديمقراطية السرية. وعلى مدى ستة أسابيع، قام بتصوير أكثر من سبعة آلاف متر من الأشرطة السينمائية تحكي حقيقة أوضاع وطنه، بعد اثني عشر عاماً من الدكتاتورية العسكرية. طاف ليتين في أرجاء الوطن - وحتى داخل قصر المونيدا* - وفي الوقت نفسه إلى جانبه وتحت قيادته كانت تعمل ثلاث فرق سينمائية أوروبية، واكبتهم ست فرق شبيبية من المقاومة في الداخل.

ثمرة ذلك كان فيلمًا استغرق أربع ساعات للتلفزيون، وفيلمًا آخر استغرق ساعتين للسينما، حيث يُعرضان حالياً في أرجاء المعمورة.

عندما قص عليَّ ميغيل ليتين في مدريد، قبل ستة أشهر ماقام به، وكيف تم له ذلك، ظننت أنه كان وراء هذا الفيلم فيلم آخر، لكنه أحجم عنه في نهاية المطاف.

★ المونيدا: قصر الرئاسة في تشيلي، أما بحد ذات الكلمة فتعني العملة.

قَبِلَ الخضوع لاستجواب منهك دام حوالي الأسبوع، حيث تم فيه تسجيل ثماني عشرة ساعة من الأشرطة، فيها تفاصيل المغامرة الانسانية وبكل تعقيداتها الحرفية والسياسية، والتي قمت بتنظيمها وتبويبها في عشرة فصول.

تمّ تغيير وتمويه العديد من المعالم والأسماء، وذلك لحماية الشخصيات المذكورة في هذه الرواية والتي تواصل حياتها في تشيلي.

فضلت الابقاء على الحديث بلسان الشخص الرئيسي، وكما رواها عليَّ ليتين، ولذلك حافظت على طريقته الشخصية ـ وأحياناً كما حصلت بالضبط ـ بدون مواصفات درامية، أو تاريخية، أما أسلوب النص النهائي فهو من صنعي، حيث أن صوت الكاتب لايتبدل وبالذات عندما تختزل ستمائة صفحة في أقل من مائة وخمسين.

لكنني حاولت في العديد من المواقع أن أحافظ على طريقة حديث التشيليين، وكما تحدثوا أصلاً مع أخذي بعين الاعتبار أفكار الراوي، والتي لاتتفق دوماً مع أفكاري، من ناحية طريقة البحث وصفته المادية، فيمكن اعتباره ريبورتاجاً.

ليس ذلك فحسب، فمن حيث اعادتنا لتركيب المشاعر التي حدثت في المغامرة، والتي وبلاشك مؤثرة ومهيّجة للشعور، نوفي بغرض أكبر من الغرض الأساسي الذي قام به على أكمل وجه، وبدون شك بانجازه فيلمًا يسخر من التدابير الأمنية للحكم العسكري.

ليتين بحد ذاته قال «ليس هذا هو العمل الأكثر بطولية في حياتي ولكنه أكثرها استحقاقاً للذكر» عين الانصاف، وهنا تكمن أهميته.

الفصل الأول

«مغامرة
ميجيل ليتين السرية
فى شيلى»



كانت رحلة لاديكو رقم ١١٥، القادمة من أسونثيون ـ البرغواي، على وشك الهبوط بعد ربع ساعة من التأخير، في مطار سانتياغو ـ تشيلي، على اليسار وعلى ارتفاع سبعة آلاف متر، يظهر الاكونكاغوا* تحت ضوء القمر وكأنه مرتفع فولاذي شاهق ممتد في الماء.

جنحت الطائرة يسارا فأثارت الرهبة، ثم عدلت مسارها وقد ند عنها صرير وأنين معدني كئيب، وارتطمت بالأرض قبيل موعدها وقفزت كالكنغر ثلاث قفزات أنا ميغيل ليتين، ابن هرنان وكريستينيا، مخرج سينمائي، أحد الخمسة آلاف منفي تشيلي، المحظور عليهم حظرا باتا العودة، من جديد أنا في وطني بعد اثني عشر عاما في المنفى، لكنني مازلت منفيا في داخل نفسي: منتحلا شخصية أخرى، مختلفة الوجه والمظهر، حتى أن أمي. ماكانت قد عرفتني عندما التقيتها بعد أيام قليلة.**

اللقاءات، وتقدير الأوضاع والموقف، وتهيئة اللقاءات، والسهر على كل مايتعلقْ بتأمين سلامتنا، فيما اذا ضبطتني الشرطة، أو اختفيت عن الأنظار أو لم أقم بالاتصال المحدد كما اتفق خلال الأربع والعشرين ساعة. عندها عليها أن تعلن للعالم انني موجود في تشيلي، حتى تتحرك الأوساط الدولية.

رغما عن أن أوراقنا الثبوتية لم تكن تشير الى أية علاقة تربطنا ببعض، فقد تنقلنا سوية من مدريد وعبر مطارات في العالم، كما لو كنا زوجين مقترنين تربطنا الأواصر الزوجية في آخر ساعة ونصف من هذه الرحلة، قررنا أن يجلس كل منا بمفرده، كما لو كان لايعرف أحدنا

---

* الاكونكاغوا: اسم هندي احمر قديم

** من العلائم المميزة لكتابة ماركيز، استخدام الماضي في المستقبل.

الآخر، وأن تتبعني لاحقا في عبور مركز الهجرة والجوازات، كي تستنفر جماعتها فيما لو حصل لي مكروه، واذا سارت الامور على أكمل وجه، نعود لننضم كزوجين اعتياديين عند خروجنا من المطار.

كانت مهمتنا سهلة على الورق، ولكن يكتنفها العديد من المخاطر عند التطبيق: الهدف تصوير فيلم وثائقي سري حول حقيقة الأوضاع في تشيلي بعد اثني عشر عاما من الدكتاتورية العسكرية.

الفكرة كانت حلماً يدور في رأسي منذ زمن بعيد، لأن صورة الوطن بهتت في غيوم الذكريات، لاتوجد أمام السينمائي سوى طريقة واحدة موثوقة لاستعادة صورة الوطن المفقود، أن يعود ويقوم بتصويره من الداخل. اختنق حلمي هذا عندما بدأت الحكومة التشيلية بنشر قوائم المنفيين الذين يحق لهم العودة، بحثت عن اسمي، فلم أجده في أي منها، فقدت الأمل نهائيا عندما نشرت قوائم الخمسة آلاف منفي والذين لايحق لهم العودة إطلاقا، كان اسمي مدرجا بينهم.

في نهاية المطاف تأكد المشروع، لمحض الصدفة تقريبا، ودون توقعي وقد مضى عامان فقدت فيهما الأمل بتحقيقه.

كان ذلك في خريف ١٩٨٤، في مدينة سان سيباستيان الباسكية، حيث أقمت هناك مدة ستة أشهر مع (ايلي) وأبنائنا الثلاثة، لعمل فيلم، مثله مثل الكثير من الأفلام التي لاترى الضوء في تاريخ السينما، حيث يعدل عنها المنتج قبل أسبوع من بدء العرض، عندها سدت الأبواب في وجهي. بينما كنت أتناول العشاء مع أصدقاء في مطعم شعبي، أثناء مهرجان السينما، عدت للحديث عن حلمي القديم، دار النقاش حوله بجدية على الطاولة، ليس من حيث أبعاده السياسية فحسب، وإنما أيضا للسخرية من طغمة بينوشيت.

لم يدر في خلد أحد أنه أكثر من حلم في المنفى، بيد أنه وبينما كنا

نقفل أدراجنا الى البيت فجرا في شوارع المدينة العجوز التي كانت تغط في نومها، أمسك المنتج الايطالي لوثيانو بالدوسي بكتفي، والذي بالكاد نبس ببنت شفة على الطاولة وتنحى بي جانبا عن المجموعة، كما لو كان ذلك عرضيا، وقال لي:

ـ ينتظرك الرجل الذي أنت بحاجة اليه في باريس. عين ماكنت أحتاج اليه، فالرجل ذو منصب كبير في المقاومة الداخلية في تشيلي، ومشروعه كان يتميز عن مشروعي في بعض التفاصيل الشكلية فقط.

تبادلنا الحديث في أنحاء منطقة كوبول مدة أربع ساعات، شاركنا لوثيانو بالدوسي بحماس، كان ذلك كافيا في سهد المنفى ليرى حلمي النور حتى في التفاصيل الدقيقة.

تكمن الخطوة الاولى في إرسال ثلاث فرق أساسية للتصوير في تشيلي: ايطالية، وفرنسية والثالثة على أن تكون من أي بلد أوروبي ولكن يشترط ان يكون ضمنهم هولنديون، وأن يدخلوا بصورة شرعية، وبتصاريح رسمية، وتحت رعاية سفاراتهم العادية، ويفضل ان تقود الفريق الايطالي صحافية، وذلك للتمويه، حيث سيترتب على الفريق تصوير فيلم وثائقي حول الجالية الايطالية المهاجرة في تشيلي، وأن يعطي حيزاً هاما وخاصا لعمل خواكينو تويسكا المعماري الذي صمم قصر المونيدا.

يترتب على الفريق الفرنسي أن يتوجه لتصوير فيلم وثائقي عن البيئة الجغرافية التشيلية. أما الفريق الثالث فإنه سيقوم بدراسة حول آخر الهزات الأرضية. يجب ان لاتكون احدى هذه الفرق على بينة بالفريقين الآخرين، ولا حقيقة مايدور، ولا حتى من يقودهم في العمل، سوى مدير كل فريق، والذي عليه أن يكون محترفا وعلى بينة بما يجري في وسطه، وبالذات فطن لما هو سياسي ويعي مخاطره.

كان هذا اسهل جزء من المهمة، حيث لم يكلفني تأمين ذلك سوى رحلة سريعة الى موطن كل فريق، في خاتمة المطاف جهزت ثلاث فرق مع عقودها، وتوجهوا الى تشيلي، بانتظار تعليماتي ليلة وصولي.

«مأساة تقمص الشخصية»

في الـواقـع تقمص شخصية أخرى أصعب فصل بالنسبة لي، حيث أن تغيير الشخصية نضـال يومي يتمرد فيه الانسان أحيانا ضد مواصفـات الشخصية الأخرى ويتشبث بشخصيته الاصلية. لم تكن مشكلتي الكـبرى تعلم ذلـك، كيف أتصرف وأفكـر، انـها كانت في مقاومتي العفوية للتغيرات الفيزيولوجية شأنها في ذلك شأن التغيرات في المسلكية.

علي أن أضع جانبا الشخص الذي كنت دوما، وأن أتقمص آخر مختلفا جدا لايثير ريبة الشرطة القمعية التي أرغمتني على هجران وطني ونكران أصدقائي. استطاع مختصان بعلم النفس، والماكياج السينمائي تحت قيادة خبير في العمليات الخاصة السرية، أتى خصيصا من داخل التشيلي، بعـد نضال مستمر، أن يقلبوا شخصيتي الاصلية رأسا على عقب. وتم لهم ذلك باعجوبة وفي أقل من ثلاثة أسابيع.

أولا اللحية، حلاقتهـا ليست بالمسـألة الهينة، انه الخروج من شخصيتي التي ألفتهـا، تركتها لتنمو منذ مرحلة مبكرة من الشباب، وذلك عندما قمت بعمل فيلمي الاول ثم حلقتها مرات عدة، لم أصور فيلما على الاطلاق الا وكنت ملتحيا.

إنها مرتبطة بشخصيتي كمخرج، حتى أعمامي أطلقوها، . . بدون شك أعشقها، وتزداد ثقتي وقدراتي بها، حلقتها منذ أعوام عدة في المكسيك، ولم أستطع أن أضع وجهي في محيا أصدقائي، ولا عائلتي، ولا حتى نفسي، الجميع كان لديه انطباع بأنه مع فضولي غريب، صممت الا اطلقها مرة أخرى، وددت أن أرى نفسي أكثر شبابا وفتوة، انتشلتني من أوهامي ابنتي الصغرى كاتالينا حيث قالت:

تبدو اكثر شبابا بدون لحية، ولكنك اكثر قبحا

كي أعود الى تشيلي علي أن أحلقها، المشكلة ليست في الرغوة وموس الحلاقة وانما في الدرب الطويل والعميق لنزع الشخصية.

أخذوا يجزونها رويدا رويدا، وأنا أرقب التبدلات في كل مرحلة، وكيف بات يتغير مظهري قصات مختلفة الى أن وصلنا لملامسة البشرة، مرت أيام قبل أن أمتلك الشجاعة وأحدق في المرآة.

بعدها أتى دور شعر الرأس، شعري أسود غزير، ورثته عن أم يونانية وأب فلسطيني، أورثني صلعة مبكرة. ابتدأوا بصبغه باللون الكستنائي الفاتح ثم سرحوه بأشكال مختلفة، ولم يغير ذلك من مظهره الطبيعي في شيء.

في البداية فكروا في اخفاء الصلع، ولكنهم عدلوا وسرحوه الى الخلف وأزالوا ماتبقى من الشعر في المقدمة بحيث أبرزوا الصلع اكثر مما هو في الحقيقة.

قد يكون كذبا، ولكن هناك لمسات مذهلة تغير في تركيب الوجه، فوجهي الدائري مثل البدر، يبدو الآن وكأنه أقل عما هو في الحقيقة بكيلو غرام، استطال وجهي بعد نزع الحواجب الخارجية، بشكل مدهش مما أعطاني مظهرا شرقيا مرتبطا بأصولي اكثر مما أورثني اياه مسقط رأسي.

آخـر خطوة كانت استعمال عدسات طبية، وسببت لي هذه ألما شديدا في رأسي خلال الأيام الأولى، لم تغير العدسات فقط من شكل العيون وانما أيضاً من طريقة تعبير النظرات.

تغيير شكل الجسد كان أسهل من ذلك بكثير، لكنه استغرق مني جهدا عقليا كبيرا تغيير الوجه، في الحقيقة موضوع يتعلق بالماكياج، أما مايخص الجسد فيتطلب تهيئة نفسية خاصة، وتركيزا عاليا، حيث تتجلى فيه كيفية تمثلي العميق لتغيير طرازي.

بدلا من سراويلات* الكـابوي التي ارتديها دوما، والسترات، توجب علي ان أعتـاد على ارتداء ملابس من الصوف الانكليزي ذي الماركات الاوروبية الشهيرة والقمصان المفصلة حسب القياس، وأحذية من جلد الوعول، وربطات عنق ايطالية مطرزة بالورود.

بدلا من لهجتي التشيلية الـزيفية السريعـة الهـادرة، علي تعلم طريقة حديث اوروغوائي ثري، فهي الجنسية الاكثر تلاؤما مع هويتي الجديدة، علي أن أضحك بطريقة تختلف عن طريقتي، أن أسير ببطء، استخدم الأيدي أثناء الحوار لتساهم في الاقناع بشكل اكبر.

في نهاية المـطاف علي ان أدع جانبا كوني مخرجا سينمائيا، فقيرا متمردا، عاثر الخطا، كما كنته دوما، وأتقمص ماأمقته في هذا العالم: برجوازي مرفه أو كما نقول نحن التشيليين: مومياء.

* سراويل: لفظ مفرد جمعه: سراويلات.

اذا ضحكت وقعت

اثناء تقمصي للشخصية الاخرى اخذت اعتاد الحياة مع ايلينا في مسكن يقع في الجادة السادسة عشرة في باريس، خضعت وللوهلة الاولى لجو كان علي ان اتمثل فيه شخصي الآخر، والى ريجيم لشحاذ ينقص وزنه عشرة كيلو غرامات، عن السبعة والثمانين كيلو غراما التي ازنها.

لم يكن بيتي، شتان مابينهما على ان اتذكره كبيتي، أن ادلفه في ذكرياتي، لتجنب اي تناقضات في المستقبل.

كانت اكثر تجارب حياتي غرابة، حيث وللوهلة الاولى تبين لي ان ايلينا فتاة لطيفة وجدية، وحتى في الحياة الخاصة، لكنني بالكاد كنت لاتمكن من الحياة معها، اختارها الاختصاصيون نظرا لمواصفاتها الحرفية والسياسية، وتوجب عليها ان تخضعني للسير في ممر فولاذي دون ان تترك لي هامشا تحلق فيه احلامي.

ترفض شخصيتي الحرة الحالمة الرضوخ لهذا، لاحقا وقد سار كل شيء على اكمل وجه، تيقظت على انني لم اكن محقا معها، لانني كنت احيانا اشخصها وبشكل عفوي على أنها من عالمي، الذي يرفض التقمص، وانا على بينه باننا في وضع مصيري نصيبنا فيه اما الحياة او الممات.

الآن تستيقظ في الذاكرة تلك التجربة الغريبة، اتساءل بعد هذا كله، لم نكن زوجين في الحقيقة: وبالكاد يحتمل بعضنا الاخر تحت سقف واحد.

لم تكن لدى ايلينا مشكلة الهوية، انها تشيلية، رغما عن انها لم تعش بشكل دائم في تشيلي منذ خمسة عشر عاما، ولم تبعد أو تستدعى لمراجعة أيّ جهاز بوليسي في العالم، لهذا فمؤهلاتها كانت ملائمة، قامت بمهام عدة في العديد من البلدان، استقبلت بترحاب مهمتها الجديدة، حيث سيتم من خلالها مهمة تصوير فيلم سري.

المشكلة الصعبة كانت مشكلتي، فالهوية الانسب لي، ولاسباب تكنيكية، كانت تتمثل في ان اجيد تقمص شخصية تبتعد كل البعد عن شخصيتي الحقيقية، وان اختلق ماضيا آخر في بلد لا أعرفه.

قبل بدء السفر تعلمت ان ادير رأسي في الحال اذا ماناداني احدهم باسمي الزائف

وكنت قادرا على الاجابة عن الاسئلة الاكثر غرابة حول مدينة مونيتفيديو، حول ارقام الباصات التي تقلني الى حيث منزلي وحتى عن حياة زملائي في الدراسة قبل خمسة وعشرين عاما اقيم في الليسيو رقم ١١ «في الجادة الايطالية وعلى بعد مفترقي طرق من صيدلية ومفترق وعن سوبر ماركت انشىء حديثا.

اهم مايجب تجنبه هو الضحك، لان ضحكتي تميز شخصيتي، وتظهرني للملأ رغما من التنكر حذرني المسؤول عن تدريبي كثيرا من الكارثة التي ستحدث اذا ماضحكت.

- «اذا ضحكت فسوف تقع»

وأنى لوجه كالطوبة ان يضحك، وهذا ليس بغريب على رجل اعمال دولي كبير اشبه بالقرش المفترس.

ازدادت المخاوف والشكوك من عدم القدرة على تنفيذ المشروع وفرص نجاحه، نظرا للتصريحات المعلنة حيث ان النظام جرح من فشله الشنيع في المغامرة الاقتصادية لمدرسة شيكاغو عكس ذلك نفسه ودفع صفوف المعارضة ولاول مرة لتتوحد في جبهة عريضة.

في ايار ١٩٨٣ انطلقت اوائل المظاهرات في الشوارع، وتكررت طوال العام، وتميزت بمناوشات قام بها الشبيبة وبالأخص الاناث، التي قمعتها السلطة بصورة دموية دعت قوى المعارضة، الشرعية منها وغير الشرعية، والتي ضمت بينها ولاول مرة قطاعات البرجوازية الاكثر تقدمية، الى القيام بالاضراب الوطني في يوم واحد، لتعبر وبصلابة عن المصالح الاجتماعية المناوئة للنظام والداعية لاسقاطه، والذي اثار حفيظة الدكتاتورية.

فقد بينوشيت اعصابه واطلق صرخة مدوية تردد صداها في العالم كترنيمة اوبرا:اذا استمر هذا، فسوف نقوم بـ ١١ سبتمبر جديد.

كانت ظروفا مؤاتية حقا، لعمل فيلم كالذي نصبو إليه، يسلط الاضواء على حقيقة مجريات الاوضاع في الداخل، وفي نفس الوقت الذي تشدد فيه قوى الامن من قبضتها وهي اكثر ضراوة وبطشا، ومجال العمل امامنا سيكون محدودا نظرا لقرار منع التجول.

قدرت المقاومة الداخلية الموقف، وحثتنا على المضي قدماً في المشروع، كما يروق لي: ان نرفع الاشرعة في بحر ملائم ورياح مؤاتية وفي الزمن المناسب

«ذنب حمار طويل لبينوشيت»

كانت اول تجربـة قاسية، يوم الـرحيل في مطار مدريد، فقـد انقضى شهر لم اشاهد خلاله ايلي وأبنائي الثلاثة، ولم تكن لدي اخبار مباشرة عنهم، ماشغل اهتمام المسؤولين عن امني انذاك، كانت فكرة سفري دون احاطة عائلتي علما بذلك لتجنب عواقب الوداع، نوقش الامـــر في بداية المشروع، واستـحـسن الجميع ذلــك كي لايثــار الاضطراب، لكن سرعان ماتنبهنا الى ان ذلك خال من أي معنى، بل وعـلى العكس، فمن الافضـل ان تكون ايلي على بينة لتتوكل بتأمين الحماية المؤخرة. وهي الشخص الانسب لاستقبال الافلام التي سأقوم بإرسالها على دفعات من داخل تشيلي، حيث تقوم بالتنقل بين مدريد وبــاريس، وبــين باريس وروـمــا وحتى الى بوينـوس ايريس، واذا ماستـدعى الامـر ان تؤمن الارصـده الاحتياطية لذلك، ومن ناحية اخـرى فان ابنتي كاتـالينا، لاحظت في غرفتي من خلال التجهيزات الأبتدائية. ملابس من طراز جديد تتناقض كليا مع طريقتي في الملبس، وحتى مع نفسيتي، ساورها الظن وحب الاستطلاع، فما كان سوى ان اجتمعت بهم، ووضعتهم على بينه من خططي، استقبلوا ذلك بكل ثقة واستحسان، وكأننا فجأة وجدنا انفسنا نعيش في أحد تلك الافلام التي

اعتدنا مشاهدتها معاً للتسلية.

عندما شاهدوني في المطار متنكراً في زي رجل دين اورغوائي، والذي بالكاد يمت الي بصلة، انتابتنا نفس الاحاسيس كلنا رأينا في هذا الفيلم عمق مأساة الواقع واهميته من حيث خطورته، والذي سيعكس بدوره عواقبه علينا جميعا. قالوا لي:

ـ المهم ان تعلق ذنب حمار طويلا جدا لبينوشيت

كانوا يقصدون لعبة الطفولة، والتي فيها يضع طفل وعيونه مغمضة ذيلا في المكان المخصص لحمار من الكرتون.

قلت لهم: ـ اعدكم ـ قست طول الفيلم الذي سأصوره. وتابعت: سيكون ذيلا من سبعة آلاف متر.

بعد اسبوع، هبطت مع ايلينا في سانتياغودي تشيلي، ولاسباب تكنيكية كان على الرحلة ان تحج وبدون جهة محددة الى سبع مدن اوروبية، لتؤهلني في التحكم بشخصيتي الجديدة والمستندة الى جواز سفر فوق الشبهات.

في الحقيقة كان جواز سفري الاورغوائي جوازا رسميا الاسم وكل التفاصيل حول حاملة، قدمه لنا حامله كمساعدة سياسية، وهو يعي بانه سيستغل وسيستخدم لدخول تشيلي. ماقمنا به فقط، كان استبدال صورته بصورتي، والتي التقطت لي بعد تقمصي. نظمت امتعتي وبحسب اسم حامله، نقشت احرف اسمه على القمصان والحقيبة الدبلوماسية اليدوية، وبطاقات الزيارة، كذلك على دفتر ملاحظاتي.

بعد ساعات من التمرين، أجدت رسم توقيعه دون ان اركز ذهني، ومالم نستطع تأمينه وذلك لضيق الوقت كانت بطاقات سحب الارصدة البنكية، نقطة ضعف خطرة في مشروعنا، فكيف يمكن الاقتناع بان الرجل الذي انتحلت هويته اشترى اثناء تجواله تذاكر سفر

عديدة، دوما يدفع نقداً وبالدولار.

كثـيرة هي المنغصـات التي تجبرنا في الحياة اليومية على الطلاق خلال يومـين، لكننـا تعلمنـا ان نتصرف كزوجين يتواصلان في اسوأ الـظروف التي تعـترض الحياة والالفـة، كلانـا على بينه من تصرفات الآخـر، الـزائفة، وماضيه الزائف، رغباته البرجوازية الزائفة، عندما ندقق بعمق تكتشف بأننـا لم نقـترف خطأ فظيعا، حكايتنا كانت قد حبكت بدقة.

نمتلك شركة اعلانات مقرها في باريس، ونحن ذاهبان برفقة فريق سينمائي لعمل فيلم دعائي عن عطر جديد سيدرج الى الاسواق الاوروبية في الخريف القادم وقع اختيارنا على تشيلي لانها من البلدان النادرة التي تلبي غايتنا، يمكننا ان نجد فيها مناخ وطبيعة كل فصول السنة، من الشواطىء الملتهبة الى مناطق الثلوج الدائمة. بدت ايلينا رشيقة، تحسد بألبستها الاوروبية الثمينة، بدت كما لو انها ليست تلك التي قدمـوهـا لي في باريس، بشعرها المسبل، وبتنورتها الاسكتلندية وحذائها المدرسي. كنت هادئا مطمئنا في جوانحي لتنكري بهيئة رجل اعمال، حتى انني نظرت هيئتي في واجهة في مطار مدريد بدلة قاتمة من قطعتين، رقبة ميتة، وربطة عنق، اشتممت فيه رائحة قرش صناعي اضطربت منه امعائي.

«ياللفظاعة» جال في خلدي تلك اللحظة: «اذا لم أكن أنا نفسي أسأكون كهذا؟؟» من شخصيتي القديمة لم يبق سوى نسخة بالية من «الخطوات المفقودة» للكاتب العظيم اليجو كاربنتر، والذي يرافقني دوماً في حقيبتي اليدوية في كل رحلاتي منذ خمسة عشر عاما أحمله كتعويذة تخفف من خوفي اللامحدود عند ركوب الطائرة، مع كل هذا كان على معـانـاة شبـابيك الجـوازات في العـديد من مطارات العالم، لاتحكم

بأعصابي برفقة هذا الجواز.

في الرحلة سار كل شيء على أكمل وجه في مطار جنيف، ولكن لن أنسى ما حييت، مفتش الجوازات وهو يدقق الجواز باهتمام زائد، يتصفحه ورقة اثر أخرى، وفي الختام تفرس بنظراته وجهي وعاد ينظر الصورة، نظرت في عينيه، وقد حبست أنفاسي، رغما من أن تلك الصورة كانت فقط ما يخصني في ذلك الجواز.

«كانت علاجا لحمار»*، منذ تلك اللحظة لم ينتابني شعور بالخوف أو الغثيان ولم تعد دقات قلبي تتسارع، حتى فتح باب الطائرة في مطار سانتياغو - تشيلي وسط صمت الاموات أخيرا وبعد اثني عشر عاما أحسست بهواء القمم الانديانية الثلجية العاصفة. على المبنى المواجه كانت هناك لوحة كبيرة زرقاء تشيلي تتقدم في نظام وسلام. نظرت الساعة: لم يبق أمامنا سوى ساعة ويحظر التجول.

* مثل تشيلي.

الفصل الثانى

«أولى إحباطاتى :
وهج المدينة»

جال في خلدي عندما فتح مفتش الجوازات جواز سفري ، انه فيما لو رفع بصره ونظر في عيني لاسترعاه التغير .

كان في المطار هناك ثلاثة ممرات للتفتيش ، يشرف عليها موظفون بلباس مدني ، قررت ان اتوجه الى اصغرهم سنا ، شعرت انه اسرعهم ، اصطفت ايلينا في طابور آخر ، وكأن لا شيء بيننا ، فاذا ما وقع احدنا في محنة ، سارع الآخر باطلاق النفير عند خروجه من المطار .

مر كل شيء بسلام ، واضح للعيان ان المفتشين في الهجرة كانوا يحثون الخطا في انجاز مهامهم قبل موعد حظر التجول ، شأنهم في ذلك شأن المسافرين ، بالكاد كانوا ينظرون الى الجوازات ، الذي تناول جواز سفري لم يدقق حتى الفيزا ، يعرف ان جيرانه الاوروغوائيين بجاجه ليسوا بحاجة اليها ، ودمغ الختم على أول صفحة بيضاء صادفته ، دقق نظراته في عيوني باهتمام ، وهو يعيد الجواز الي ، جمدت جوانحي .

قلت بصوت واثق : شكرا

رد علي بابتسامة مشرقة : اهلا وسهلا .

تتقاعس الحقائب كثيرا عن الخروج في كل مطارات العالم ، كأنها لا تتحرك ، اما هنا فقد خرجت بسرعة ، فموظفي الجمارك يستعجلون العودة الى منازلهم قبل حظر التجول . تناولت حقيبتي ، ثم اخذت حقيبة ايلينا ـ كما اتفقنا ـ بان اخرج قبلها بالامتعة لكسب الوقت ، ورفعت كلتيهما الى منضدة التفتيش الجمركي .

كان المفتش في عجلة من امره مثل كل المسافرين ، وبدلا من تفتيش الحقائب كان يحث المسافرين على الخروج بسرعة .

بينما كنت اضع الحقائب على الطاولة سألني : اتسافر لوحدك ؟؟
أجبته : نعم ، القى على الحقائب نظرة عابرة ، وحثني على المرور .

من الداخل صرخت مفتشة : فتش هذا .

لم اشاهدها إلا في تلك اللحظة ، مفتشة من الطراز الكلاسيكي شقراء مسترجلة متمنطقة بحزامين متصالبين على الظهر ، عندها فقط ادركت انني في محنـة ، فكيف افسر حيازتي لهذه المـلابس النسائية . تشوشت افكاري . . . فلماذا لم تقتنص احدا سواي من بين المسافرين المستعجلين ؟؟

إذا ، لعل القضية اكبر من مسألة حقائب .

بينـما كان المفتش ينبش بمـلابسي ، طلبت جوازي وتفحصته باهتـمام ، تذكـرت قطعـة الحلوى التي قدمت لي في الـطائـرة قبيل اقـلاعهـا ، القمتها في فمي حيث اني كنت على بينة من انهم سوف ينهالون على بالاسئلة ، وبالكاد كانت لدي الثقة في قدراتي على اخفاء هويتي التشيلية الحقيقية بلكنتي الاوروغـوائية الـركيكه . كان الرجل سباقا في اسئلته :

ـ استمكث هنا اياما عدة . . . يا سيد ؟

ـ ما يكفيني .

حتى انا نفسي لم أعِ ما قلته وقطعة الحلوى في فمي ، لكنه لم يعر ذلك اهتماماً طلب مني أن افتح الحقيبة الاخرى ، وكانت مغلقة بالمفتاح .

لم اعـرف ماذا أفعـل ، بحثت عن ايلينـا باعـين مضـطربة ، وبصعوبة رأيتها في الطابور لا تدري بالكارثه التي حلت بجوارها ، اول مرة اتنبه فيها كم انا بحاجة اليها .

ليس لتلك اللحظة فقط ، وانما لكل فصول مغامرتنا .

حزمت امــري في نفسي ، ورأيت ان اشــير الى انها صاحبـة الحقيبة ، دون ان افكر بعواقب قراري العفوي ، عندها اعادت المفتشة جواز سفري وامرت بتفتيش الحقائب التالية .

اعدت النظر الى ايلينا ، لكنها كانت قد غابت عن انظاري !!! كانت لحظة سحرية ، ما استطعنا تفسيرها : لحظتها لم تكن ايلينا بادية للعيان ، لاحقا قالت لي بانها رأتني وهي في الطابور اجرجر حقيبتها ، ودار في خلدها ان تصر في ذلك لم يكن متعقلا ، لكن ثورتها هدأت وهي تشاهدني اخرج من صالة الجمارك .

اجتزت الممر شبه الخالي ، اتبع الحمال الذي تلقف امتعتي الى العربة عند الخروج عندها عانيت أول صدماتي اثناء العودة ، اذ اني لم اشاهد المظاهر العسكرية ولا حتى ادنى شكل للبؤس . فانا لست في مطار لوس ثيريّوس الضخم والمكفهر والذي بدأت منه رحلة المنفى منذ اثني عشر عاما في ليلة ممطرة من ليالي تشرين الاول ، يرافقني شعور الفرار الرهيب ، وانما انا في مطار بودا هويل الحديث ، الذي مررت منه مرة واحدة فقط قبل الانقلاب العسكري . لكن ذلك الشعور وبجميع الاحوال لم يكن متعلقا بانطباعاتي فحسب ، ففي تلك اللحظة بالذات لم اتــوقــع ، ان لا اشــاهد اثرا للجهاز المسلح ، وخاصة وضع يحظر التجـول فيه . كل شيء في المـطار كان نظيفا وبراقا اعلانات مشرقة الالــوان ، واجهات كبيرة تحوي عينات عدة للبيع ، لكنني لم اشاهد هناك دليلاً واحدا يرشد مسافرا تائها .

لم تكن سيارات الاجرة التي كانت تنتظر على قارعة الرصيف ذات الموديلات القديمة والضجة المزعجة التي عهدتها ، وانما ذات موديلات يابانية حديثة كلها متشابهة ومنظمة .

حتى تلك اللحظة لم استبق الامور ايلينا لم تظهر بعد ، كنت جاهزا مع الحقائب في السيارة ، والساعة تمضي قدما ، ويقترب موعد حظر التجول ، عندها غلى الشك من جديد ، فطبقا لتعليماتنا ، اذا خرج احدنا ولم يتبعه الآخر ، فليستمر الاول قدما ، ويخطر الجهات المسؤولة عما جرى بالهاتف .

شق علي ان اتخذ قراري بالذهاب لوحدي ، خاصة واننا لم نتفق حول الفندق الذي سنحل فيه .

عند دخول الديار قررت الذهاب الى فندق الكونكستادور* وهو فندق يرتاده كبار رجال الاعمال ، ويلائم صفتنا الزائفة ، كما وان الفريق الايطالي اقام هناك فكرت مليا ، فأيلينا لا تعرف ذلك ، وانا على وشك ان اضع حدا للانتظار ترتجف اوصالي من الاحباط والبرد ، لمحتها تركض نحوي ، يلاحقها غير بعيد عنها رجل بلباس مدني يلوح (بمشمع) واق للمطر في يده .

تجمد الدم في عروقي ، هيأت نفسي لما هو اسوأ ، في نهاية المطاف ادركها الرجل (بالمشمع) الذي نسيته على منضدة الجمارك .

تعوقت لسبب آخر : فطنت المفتشة الى انها تسافر بدون حقائب ، فنبشوا كل ما في حقيبة يدها بدقة ، وجوازها ، وكل ما يخصها ، لكن لم يتصوروا ان جهاز الراديو الياباني الصغير الذي كانت تحمله هو بحد ذاته سلاحا ، بواسطته سنواصل اتصالاتنا مع المقاومة في الداخل بمحطة خاصة ، كنت معكر المزاج اكثر منها ، ظننت انها تأخرت اكثر من نصف ساعة ، وهي تبرهن لي في السيارة على انها لم تتأخر سوى ست دقائق .

من جهته دس سائق السيارة انفه ، وهدأ من روعي ، بانه لا زال امامنا ثمانون دقيقة حتى يحظر التجول وليس عشرين دقيقة كما ظننت ،

فإذا ساعتي لازالت بتوقيت الريودي جانيرو ، تشير الى العاشرة واربعين دقيقة في ليلة قاتمة وصقيعية .

* الفاتح

« الأجل هذا اتيت ؟؟ »

بدلا من دموع الفرح ، راودني الشك ، خلال توجهنا نحو المدينة ، ففي الواقع كانت طريق المطار القديم « لوس ثيريوس »* قديمة ، على جانبيها منشآت صغيرة بائسة ، وازقة للمعدمين الذين عانوا قمعا دمويا اثناء الانقلاب العسكري . طريق المطار الدولي الحالي ، اكثر اتساعا ، تتوهج اضواؤها كما هي في اكثر بلدان العالم تطوراً .

بداية سيئة لي ، لم اكن على قناعة فقط بسوء الدكتاتورية ، وانما كنت متلهفا ان ارى فشلها ايضا في الشارع ، وفي الحياة اليومية ، وفي تجلياتها على مظاهر الناس ، لتصوير ذلك ، وعرضه في انحاء العالم .

في كل متر كنا نجتازه كانت انطباعاتي المسبقة تنقلب الى احباط جلي ، حتى ان ايلينا اكتنفها نفس الشعور الغريب ، فقد افصحت لي مؤخرا ذلك ، رغما عن انها مكثت في تشيلي مرات عدة في الزمن الراهن .

* الشموع

على ارض الواقع ، كانت سانتياغو على عكس ما كنا نتصوره في المنفى ، تبدو مدينة براقة ، بمعالمها المضيئة البديعة ، نظيفة الشوارع ، ونادراً ما تبدو اجهزة القمع بل وحتى لا تظهر كما في باريس او نيويورك .

فتح امام اعيننا شارع (برناردو او هيجنز) الذي اصطفت على جانبيه اشجار لا تنتهي ، كحشد من الاضواء ، بدءا من المحطة الرئيسية التاريخية التي صممها غوستافو ايفل ، مصمم برج ايفل في باريس ، حتى بائعات الهوى الليليات على الرصيف المقابل اقل حزنا وبؤسا من ازمنة مضت .

فجأة بدا «قصر المونيدا» مثل شبح يشيع الرهبة في صدور الناس ، في آخر مرة شاهدته فيها ، كان مظهره الخارجي مغلقاً بالرماد ، الآن رمموه واصبح قيد الاستخدام ، يظهر المبنى بكل آيات الجمال في عمق حديقة فرنسية .

من خلال نافذة السيارة تبدو معالم المدينة البارزة ، بدون انتظام ، نادي الاتحاد ، حيث يجتمع كبار الاثرياء ليحتكروا خيوط السياسة التقليدية ، وتبدو نوافذ الجامعة المطفأة ، وكنيسة سان فرنسيسكو ، وقصر المكتبة الوطنية ، ومخازن باريس . كانت ايلينا الى جواري تتابع مهمتنا ، تقنع السائق بان يقودنا الى فندق الكونكستادور ، وهو يلح على اخذنا الى فندق آخر ، بالتأكيد حيث يدفعون له عمولة على الزبائن .

كانت تبادله الحديث بدماثة ، دون ان تجرح شعوره ، او تثير انتباهه ، فالعديد من السائقين في سانتياغو يعملون كمخبرين للشرطة ، كنت في حيرة من امري أأتدخل ام لا .

ما إن اوشكنا على الاقتراب من مركز المدينة ، حتى عدت

لأختلس النظر الى الرونق المادي الذي صنعته الدكتاتورية كي تمسح علائم جريمتها الدموية بحق اكثر من اربعين الف قتيل والفي مفقود ، ومليون منفي .

دققت النظر في الناس ، كانت تسير بسرعة غير اعتيادية ، ربما يعود ذلك لقرب موعد حظر التجول ! ليس هذا فقط ما استرعى انتباهي ، ففي وجودهم عنف الريح الثلجية ، لا أحد يتكلم أو يركز نظراته في اتجاه محدد ، لا أحد يبدي شعوره ، أو يضحك ، ولا أحد يتصرف بطريقة تبدي هواجسه النفسية داخل المعاطف القائمة ، بدا وكأن لا أحد منهم يعرف الآخر ، وكل بوحدانيته في هذه المدينة .

وجوههم بيضاء خالية من التعابير والخوف ، لا تعكس شيئاً ، عندها تغيرت انطباعاتي ، شيء الح علي في جوانحي لم استطع مقاومته ، ان اترك السيارة ، واختفي بين حشد البشر هذا . نبهتني ايلينا الى العواقب ، حذرتني بما استطاعت دون ان يسمعها السائق .

اسيرا لشعور لم استطع مقاومته ، اوقفت السيارة ، ونزلت منها بعد ان اغلقت الباب خلفي بعنف .

مشيت مئتي متر على غير هدى قبيل حظر التجول ، اول مئة متر كانت كفيلة لأبدأ باسترجاع مديني . مشيت في شارع استادو* وشارع هويرفانوس** وفي شوارع اغلقت فقط لسير المشاة لا السيارات ، مثل شوارع فلوريدا*** دي بوينوس آيرس وفياكوندوتي دي روما ، وساحة بياو بورغ دي باريس ، وزونار وساثيوداد دي مكسيكو .

تناثرت هناك مقاعد خصصت للجلوس والحديث ، وإزدانت الشوارع بالاضواء البهيجة ، واحواض الزهور التي خصص عمال للاهتمام بها ، انجازات الدكتاتورية الجميلة هذه لم تستطع ان تموه الحقيقة ، القلة من الناس التي كانت تتحادث عند الركن تتهامس

بصـوت منخفض ، كي لا تلتقط الاذان المنتشرة للسلطة ما يقـولون والباعة المتجولون يعطونك صورة نقيضة ، وهناك الكثير من الاطفال تتسول من المارة .

اكثر ما شد انتباهي اولئك المبشرون الدينيون يعظون في الشارع ويبشرون بكتيباتهم الدينية التي يبيعونها للناس .

وبجـوار الـركن عنـد عودتي فوجئت برؤية اول رجل امن منذ وصولي ، يتسكع بهدوء من رصيف الى آخر ، شاهدت العديد منهم في كابينـة خصصت للمـراقبـة عند ركن هويرفانوس . شعرت بفراغ في معـدتي ، تراقصت قدماي ففي كل مرة ارى فيها هؤلاء امتلىء غيظا وينتابني ذلك الشعور . في الحال تنبهت الى انهم مستنفرون يراقبون وبأعين ثاقبة العابرين ، يبدو انهم مرتعبون ، مما واساني في عزائي ، كانـوا محقـين في خوفهم ، فقبل قدومي بأيام قليلة ، فجرت المقاومة كابينة المراقبة تلك بالمتفجرات واطارتها الى السماء .

* الدولة

** الأيتام

*** الزاهرة

« في معقل ذكرياتي »

عناصر ماضي كانت هنا ، حيث المقر الذي لا ينسى لقناة التلفزيون القديمة وقسم التصوير والبرامج المتلفزة ، وكانت هنا كلية المسرح ، حيث اتيتها من قريتي في المحافظة ، عندما كان عمري سبعة عشر عاماً ، لتقديم امتحان القبول الذي حدد مجرى حياتي ، هنا أيضاً كنا نقوم بمهرجانات سياسية للوحدة الشعبية ، عشت فيها ولأول مرة أفلاماً خالدة ، للحظة احس بعظمتها ، ومن بينها ذلك الذي لا ينسى « هيروشيما مون أمور » .

فجأة ، مر أحدهم يغني أغنية بابلوميلانيز الشهيرة : سادوس الشوارع التي عمدها سانتياغو بدمه مرة اخرى ، يالها من مصادفة عظيمة ، لم احتمل احسست بحشرجة في الحنجرة ، ارتجفت حتى عظامي ، نسيت الساعة ، نسيت هويتي ، ووضعي السري ، للحظة عدت لأشعر بكياني أنا نفسي ولا أحد غيري في مدينتي المتمردة ، كان علي ان أقاوم ما يدفعني في أعماقي بدون تعقل كي أكشف هويتي واصرخ اسمي بكل ما اوتيت من قوة ، وأواجه من يصدني أيا كان في حقي أنا أعيش في موطني .

قبيل موعد حظر التجول عدت الى الفندق باكيا ، فتح البواب لي الباب ، الذي فرغ من إغلاقه . كانت ايلينا قد سجلت وجودنا عند الاستقبال ، في الغرفة كانت تمدد هوائي الراديو الصغير . مستغرقة في الهدوء ، ما إن شاهدتني أدخل حتى انفجرت في وجهي كزوجة تقليدية . لم تتصور أنني جازفت ومشيت في الشوارع حتى قبيل حظر التجول. لكنني كنت جاهزاً لتقريعاتها كما وتصرفت كزوج تقليدي ، خرجت طارقا الباب خلفي ، وذهبت لأفتش عن الفريق الايطالي في نفس الفندق . طرقت الغرفة ٣٠٦ ، اسفل طابقنا بدورين ، جهزت نفسي حتى لا أرتبك في الاشارات التي اتفقت عليها مع مديرة الفريق ، قبل شهرين .

خرج علي صوت نصف نائم عرفت فيه صوت غراسيا الدافيء بدون الحاجة الى الاشارات السرية .

سألتني من الداخل : ـ من أنت ؟

ـ غابرييل .

سألت ـ ثم ماذا ؟

قلت ـ ملائكة السماء .

ـ سان خورخي وسان ميغيل

بدلا من ان تهدىء إجاباتي الصائبة من روعها ، في كل مرة كانت ترتجف نبرات صوتها أكثر ، كم كان غريبا ، فهي بالتأكيد تعرف صوتي ، بعد محادثاتنا المسهبة في ايطاليا ، ولكنها عاودت من جديد تتساءل عن القديس والعلائم ، عدت فأكدت لها . . سان خورخي وسان ميغيل .

قالت : ساركو

كان ذلك اسم بطل الفيلم الذي عملته في سان سيباستيان ـ

مسافر الفصول الاربعة ـ واجبتها قائلاً الاسم :

ـ نيكولاس .

لم يرق لغراسيا ، الصحافية المتخصصة للمهام الصعبة الاختبار فتابعت

ـ كم قدم طول الفيلم ؟

ساعتها فهمت أنها ستستمر في إلقاء الاسئلة حتى النهاية ، كانت بعيدة عن الباب . دخل في روعي ان تثير هذه الظنون في الجوار ، اذا ما سمعنا رواد الغرف المجاورة .

قلت : ـ كفى هراء ، وافتحي الباب .

لكنها أفصحت عن عناد عايشته معها في كل دقيقة في الايام القادمة ، لم تفتح الباب حتى نهاية الشيفرة . قلت في نفسي :ـ «ياللعنة» ، لم يجل في خاطري عندها ايلينا فقط ، وانما أيضاً ايلي ، «كل النساء واحدة» ، على مضض ، اذعنت لاسئلتها ، اكثر ما ابغضه في الحياة خنوع الأزواج لزوجاتهم . ما إن وصلنا الى نهاية الدرب حتى ، فتحت . غراسيا الشابة الرائعة التي عرفتها في إيطاليا الباب بدون مقدمات ، حملقت في كما لو رأت شبحا ، وعادت لتغلقه فزعة .

قالت فيما بعد « رأيتك كما لو أنني شاهدتك سابقا ، ولكنني لم أعرف من تكون» . امكنني توضيحه ففي إيطاليا عرفت ميغيل ليتين ذلك الذي لا يكترث بمظهره وملبسه ، ملتحيا ، وبدون عدسات ، اما الرجل الذي طرق الباب ، فكان أصلع ، ضعيف النظر ، ناعم الذقن ، يرتدي ملبسا أشبه لمدير مصرفي .

قلت لها : افتحي الباب ، هدئي من روعك ـ أنا ميغيل

تفحصتني باهتمام ، ثم اذنت لي بالدخول ، واستمرت تحملق في بخبث قبل أن تصافحني ، فتحت الراديو بصوت عال ، كي لا يتنائى

ما نتحادث به الى مسامع رواد الغرف المجاورة ، أو تحسبا فلعل هناك آلات تسجيل خفية في أركان الغرفة ، كانت هادئة ، وصلت الى هنا منذ اسبوع مع فريقها المكون من ثلاثة اشخاص ، وهم مزودون بتصاريح تسمح لهم المباشرة في العمل ، ذلك بفضل الجهود الخيرة لسفارتهم ، وبالتأكيد فان موظفيها لا تعرف كنه غايتنا . وحتى أكثر من هذا : فقد دشنوا العمل وبدأوا يصورون كبار المسؤولين في النظام الذين حضروا قبل ليال قليلة العرض البهي «مدام بترفلاي» الذي قدمته السفارة الايطالية في المسرح البلدي . دعي الجنرال بينوشيت الى ذلك الحفل ، لكنه اعتذر في آخر ساعة . ما قام به الفريق الايطالي اثناء وجوده في العرض ، كان هاما بالنسبة لنا ، حيث استطاع ان يثبت وجوده في سانتياغو بطريقة رسمية ، مكنه ذلك من التحرك في الشوارع في الايام التالية بدون أن يدور حوله أدنى شك . من ناحية أخرى . كان تصريح التصوير داخل قصر المونيدا جاهزا ، وتم التأكيد بأن لا معوقات ستعترضنا .

أثلج الخبر صدري كثيرا ، وددت العمل في الحال ، لولا حظر التجول لطلبت من غارسيا أن توقظ كل الفريق . لنقوم بأول أعمالنا الوثائقية ليلة عودتي . وضعنا برنامجا محددا كي نبدأ بالتصوير ومنذ الساعات الاولى على ان لا يعرف اعضاء الفريق البرنامج قبل اوانه ، وان يتوهموا بأن غراسيا هي من يقودهم . غراسيا من جهتها . لا تعرف أن هناك فريقين آخرين يعملان معنا في نفس الفيلم . قطعنا شوطا كبيرا ونحن نحتسي جرعات الغرابا grappa الايطالية ، مشروب كحولي ايطالي اشبه بالنار الملتهبة ، كانت تحمله دائما ، يساعد في جميع الأحوال . عندما قرع جرس الهاتف ، قفز كلانا في نفس الوقت ، تناولته غراسيا ، استمعت للحظة ثم عادت لتغلق السماعة .

كان ذلك أحد موظفي قاعة الاستقبال في الفندق ، طلب منها أن تخفض صوت الموسيقى حيث خابره أحد المقيمين في الغرف المجاورة ليسكت الجهاز . .

«الصمت الرهيب استل ذكرياتي

تدفقت المشاعر في يوم واحد. عندما عدت الى غرفتي، كانت ايلينا تبحر في نوم عميق، وقد تركت ضوء منضدتي مشتعلا وخلعت ملابسي دون أن أثير ضجة، هيأت نفسي للرقود كما أوحى لنا الله، كان ذلك من المحال، فما أن دسست نفسي في الفراش، حتى تنبهت الى الصمت المخيم الرهيب أثناء منع التجول، لاأتصور صمتا آخر شبيها لذلك في العالم.. الصمت كان يضغط على صدري، يستمر بالضغط أكثر... أكثر، لم يكن لينتهي أبداً. لا ضجة اطلاقا تسمع في هذه المدينة المطفأة المترامية الاطراف. ولا حتى ضجة الماء في الانابيب، ولا تنفس ايلينا، ولا حتى نفس حركة جسمي العضوية في داخلي، نهضت منتفضا، وطللت من النافذة لاشتم هواء الشارع العليل، ونظرت المدينة المتصحرة، ولكنها مدينة بحق وحقيقة، لم أشاهدها أبدا بهذه الوحدانية والكآبة، منذ أتيتها أول مرة، لا أذكر متى في أيام المراهقة.

كانت النافذة في الطابق الخامس، تطل على زقاق بدون مخرج تحيطه، جدران عالية اكتحلت من الاعلى. من داخل الفسحة، لايشاهد سوى بقعة من السماء خلال الغيوم الرمادية. لم أحس أنني في

وطـني، ولا حتى في وسط الحياة اليومية العـادية، سوى مجرم أضيق الخنـاق عليه كما في تلك الافلام الشتوية القديمة لمارسيل كارنيه. في السابعة صباحا قبل اثني عشر عاما، فتح سرجنت من فصائل الجيش زخة من رشاشه فوق رأسي، وأمرني أن أنضم الى مجموعة من السجناء يساقون الى مبنى «تشيلي فيلمز» حيث كنت أعمل.

كانت المـدينـة ترتعـد من فرقعة شحنات الديناميت، وزخات الرشاشات البعيدة المدى، وتحليق وانقضاض الطائرات العسكرية كان السرجنت الذي اعتقلني جاهلا بما يجري، لدرجة أنه سألني عما يحدث في اللحظة التي انفردنا بها. . . سألني:

ـ أأنت السيد الـذي عمـل فيلم «تشـاكال دي ناهو يلتورو»* رددت عليه بالايجـاب، بدا وكـأنـه نسي كل شيء من جراء أصوات الـطلقـات وفـرقعة شحنات الديناميت والانفجارات المتوالية في قصر الرؤساء، وطلب مني أن أوضح له كيف ينزف الدم من جروح الممثلين وكيف يموتون في السينما فبينت له، سره معرفة ذلك، لكنه سرعان ما تنبه الى ما يجري وانقلب يصرخ فينا ـ : اياكم والنظر الى الخلف، والا طيرت رؤوسكم. ظننا أن ما يدور ما هو الا ضرب من اللهو، حتى وقعت أعيننـا بعـد دقـائق قليلة من ذلك على أوائل الجثث الملقاة في الشوارع، جريحا ينزف دما على أحد الارصفة دون أن يتلقى اسعاف من

chacal de Nahueltoro

* ـ فيلم من اخراج ميغيل ليتن وهو يدور حول قصة واقعية حدثت، فيه يقوم رجل بعدة جرائم ومن ثم تلقي الشرطة القبض عليه، يتعلم في السجن القراءة والكتابة وغير ذلك من القيم، وعندما تغيرت مسلكيته وأصبح مواطناً صالحاً جديراً باطلاق سراحه، يقاد الى ساحة الاعدام ويعدم.

أحـد، وعلى زمر مدنية تجهز على مناصري الرئيس سالفادور الليندي بقضبان حديدية.

رأينـا مجمـوعة من السجناء وصدورهم على الجدران، وثلة من قوات الجيش تتهيأ للاجهاز عليهم، ويؤكدون «نحن محايدون» واختلط الحـابـل بالنـابـل، كانت بنـاية «تشيلي فيلمـز» محاطة بجنود مزودين برشاشات منصوبة على قواعد ثابتة ومصوبة نحو المدخل الرئيسي. خرج البواب معتمرا قبعة سوداء عليها شعار الحزب الاشتراكي لملاقاتنا صاح مشيرا الي ـ آه، هذا الرجل هو السيد ليتين، المسؤول عن كل ما يجري هنا...

دفعه السرجنت دفعة قوية أطاحت به أرضا وصاح فيه فلتذهب الى الجحيم، لاتكن مخنثا.

أقعى البواب على أربع كالكلب، وسألني مرتعبا:

الا تريد أن تتنـاول قليلا من القهـوة، سيد ليتـين، قليلا من القهوة؟ أمرني السرجنت أن أستفسر عما يحدث بالهاتف، حاولت ذلك، لكنني لم أستطع !ن !خابر أحدا. في كل لحظة يدخل ضابط ويعطي أمـرا، يأتي آخـر ويصـدر أمـرا مغـايرا، تستطيعون التدخين، ممنوع التدخين، اجلسوا قفوا. أخيرا وبعد نصف ساعة وصل جندي فتي، وأشار اليّ بسلاحه مخاطبا السرجنت:

ـ اسمعني يا سرجنت هناك سيدة شقراء تسأل عن هذا الرجل كانت ايلي بدون شك، خرج السرجنت لمقـابلتها أثناء ذلك، حدثنا الجنود بأنهم أخرجوا من ثكناتهم فجراً بدون تناول الافطار، أعطيت لهم تعليمات برفض أي شيء، كانوا يرتجفون من البرد جائعين، سجائرنا كانت الشيء الوحيد الذي بوسعنا تقديمه لهم.

على هذا الحال كنا عندما عاد السرجنت برفقة الضابط وبدأ يدقق

في هويات المعتقلين لتحويلهم الى ساحة الملعب، عندما وصلني الدور، لم يترك السرجنت مجالا لي للاجابة. قال لمسؤوله ـ لا، ياسيدي الضابط ـ هذا السيد ليس له أية علاقة، اتى الى هنا ليتقدم بشكوى، حيث أن بعض الجيران هشموا له سيارته بالعصي. جحظ الضابط في بريبة.

ـ ولديك القدرة لتتقدم بشكوى في هذه اللحظة؟.

وقال دون أن يوضح شيئا:

ـ هيا، طر من هنا.

أطلقت ساقي للريح، وأنا على قناعة بأنهم سوف يطلقون الرصاص على ظهري، ويصفونني تحت طائلة عقوبة الفرار، لم تجر الامور كما اعتقدت، كانت ايلي قد أتت لاخذ جثتي، حيث أخبرها صديق بأنهم نفذوا في الاعدام أمام «تشيلي فيلمز».

ارتفعت أعلام خفاقة على العديد من المنازل في الشوارع، كانت تلك اشارة تدلل للعسكر على مواقع مؤيديهم، في حين وشت بنا احدى جاراتنا تعرف من علاقتنا بالحكومة، وعن مشاركتي الفعالة في حملة الانتخابات الرئاسية لصالح الليندي، وكذلك عن الاجتماعات التي كانت تدار في بيتي قبيل الانقلاب العسكري، لم نعد الى بيتنا خلال الشهرين التاليين وكنا ننتقل من بيت الى بيت نجرجر أطفالنا وحاجياتنا الضرورية، هاربين من الموت المحدق والذي يطارنا من كل صوب واستفحل الحصار وزاد من تضييق خناقه حتى أرغمنا على أن ندلف نفق المنفى.

الفصل الثالث

«منفيون فى وطنهم»

في الثامنة صباحاً طلبت من ايلينا أن تتصل لي برقم هاتف لايعرفه أحد سواي، وأن تسأل عن شخص، أفضل أن أطلق عليه تعب زائف: فرانكي، اجابها نفس الشخص، وأخبرته انها من طرف غابر ييل، وبدون مقدمات طلبت منه أن يتوجه الى الغرفة رقم ٥٠١ في فندق الكونكستادور.

وصل في أقل من نصف ساعة بينما كانت ايلينا على وشك الخروج، وانا لازلت قابعاً في الفراش، وعندما سمعت قرع باب الغرفة. دثرت نفسي بالشرشف واخفيت رأسي، لم يكن فرانكي على بينة ممن سيقابله، كنا على اتفاق مسبق بأن يُطلق على أي مبعوث أرسله من طرفي غابرييل.

في الأيام الاخيرة اتصل به ثلاثة يدعون غابرييل، كانوا قادة فرق التصوير من ضمنهم غراسيا، فلماذا لايكون هذا الغابرييل الجديد أنا نفسي.

كنا أصدقاء منذ فترة طويلة، سبقت أيام «الوحدة الشعبية». عملنا سوية في أفلامي الأولى، التقينا مرات عدة في مهرجانات متفرقة للسينما، آخر مرة التقينا فيها، كانت العام الماضي في المكسيك، مع ذلك عندما ازحت الغطاء عن وجهي لم يعرفني، حتى ضحكت (علامتي المميزة) وهذا ما عزز ثقته في مظهري الجديد، فرانكي كان مجنداً لحسابي منذ نهاية العام الفائت، يترتب عليه استقبال وتوزيع التعليمات المسبقة على فرق التصوير كلٍّ على حدة، وقام بسلسلة التحضيرات الأساسية لتسهيل عملنا، بدون تعارض مع توجيهات ايلينا. كانت اضبارته نظيفة لدى أجهزة الأمن، فهو مواطن تشيلي،

نفى نفسه الى كاراكاس طواعية بعد الانقلاب العسكري، وبدون أن توجه أية تهمة اليه. منذ ذلك التاريخ انجز عدة مهام سرية داخل كشيلي، حيث كان يتحرك بمطلق الحرية، ودون أن يثير الشبهات.

له شعبية في الوسط السينمائي، قوامها دماثته الشخصية، خياله وجرأته ذلك ما جعله شريكي المناسب في هذه المغامرة، لم أخطىء الظن فقد دخل دون رفقة أحد قبل أسبوع، قادماً من البيرو براً الى تشيلي كما اتفقنا ليستقبل ويتعاون وبشكل منفصل مع الفرق الثلاث وها قد باشرت الفرق بالعمل. الفريق الفرنسي كان يعمل في شمال البلاد، ويقوم بالتصوير مغطياً المنطقة بدءاً من أريكا وحتى بالبارائيسو، طبقاً لخطة دقيقة التفاصيل رسمتها قبل أشهر في باريس مع مديرها.

يقوم الفريق الهولندي بالعمل نفسه في الجنوب، أما الايطالي فسيمكث في سانتياغو للعمل تحت قيادتي الشخصية، وتحت أهبة الاستعداد أيضاً لتغطية أي حدث مفاجىء.

كانت لدى الفرق الثلاث تعليمات باستطلاع اراء الناس حول سالفادور الليندي متى تسنح الفرصة لهم بذلك ودون الوقوع في مغبة المخاطرة أو اثارة الشكوك. حيث وجدنا في الرئيس الراحل جوهراً حساساً لجس النبض ومعرفة وجهة نظر أي مواطن من حيث علاقته مع الوضع الحالي وآفاقه المستقبلية المحتملة.

كانت لدى فرانكي خريطة عمل لكل فريق، وحتى قائمة الفنادق التي كان من المفروض أن تحل فيها، بحيث تمكنه من متابعة الاتصال معهم في أية لحظة وهذا ما يسر لي اعطاءهم تعليمات شخصية بواسطة الهاتف، وزيادة في الأمان، سيقودني فرانكي بسيارة مستأجرة نستبدلها بأخرى كل ثلاثة أو أربعة أيام ومن شركات تأجير مختلفة ونادراً ما كنا نفترق خلال الفترة التي استغرقها التصوير.

«ثلاثة ذبحوا ولكنهم أسقطوا جنرالاً»

باشرنا العمل في التاسعة صباحاً. في «بلاثادي لاس آرماس» والتي تبعد عن الفندق بضعة مفارق، كانت تعج بالحركة أكثر مما كانت عليه أيام ذكرياتي.

بدت لي الـزهور الدائمة والمتجددة كل أسبوع، أكثر غضاضة وبهجة عما كانت عليه في أي وقت مضى، تحت أشعة الشمس الشاحبة تتسلل بين أوراق تلك الأشجار الضخمة، في خريف تلك البقاع الثلجية.

قبل ذلك بساعة ابتدأ الفريق الايطالي بتصوير الحياة اليومية، متقاعدون يقرأون الجرائد على المقاعد الخشبية، عجائز تطعم الحمام، باعـة متجـولـون، مصـورون بماكيناتهم القديمة ذات الكم الاسود، ورسـامـو الكاريكاتور في ثلاث دقائق، ماسحو الأحذية المشبوهون، الذين تفوح منهم رائحة المخبرين، أطفال ببالوناتهم الملونة أمام عربات البوظة، أناس تخرج من الكاتدرائية. في أحد أركان الساحة، كان هناك فريق محلي خاص من الفنـانـين ينتظر عقوداً لإحياء حفلات خاصة، موسيقيون معروفون، سحرة، ومهرجو أطفال، مخنثون متبرجون يرتدون أزياء فاضحة فيها إثارة جنسية لايمكن وصفها.

على العكس من الليلة السابقة، في ذلك الصباح المشرق تمترست في السـاحـة قوات متعـددة من الشرطـة، مجهزة ومدججة بالسلاح، ترافقهم باصات تنبعث من أجهزتها الموسيقية القوية أغانٍ حديثة وبأعلى درجة.

لاحقاً اكتشفت أن القادم حديثاً للوهلة يسترعيه قلة رجال الأمن في الشـوارع. ولكن طوال اليوم تبين لي أن هناك فرقاً أمنية مختبئة في المحطات الرئيسية في أنفاق القطار، وهناك اطفائيات مزودة بمضخات الماء في الشوارع الجانبية، جاهزة للبطش الأعمى وقمع أي احتجاج كان، كتلك المظاهرات العديدة واليومية التي تحدث دون سابق انذار. المراقبة شديدة جداً في «بلاثا دي لاس ارماس» مركز المدينة الذي يعج بالحركة في سانتياغو، حيث يقع هناك مقر الـ (فيكاريا دي لاسوليدا ريداد)*.

وهي منـظمة كبيرة تنشط في مهاجمة الدكتاتورية، أسسها وقاد نشـاطـاتها الكاردينال «سلفا انريكيث»*، بتضافر جهود الكاثوليك، وكـل الذين يناضلون من أجل عودة الديمقراطية إلى تشيلي. هذا ما أعطاه مراساً صلباً، لايتوانى فيه عن مقاومة السلطة. والساحة الواسعة المشمسـة أمام بيته الكولونيالي، أشبه بساحة سوق. حيث تجد هناك ملجأً وعطفاً إنسانياً لكل الملاحقين من جميع الألوان، حيث يقدم العون لمن هم بحاجة، وبكل ما في وسعهم يعملون على أن تصل شكواهم إلى حيث يجب أن تصل، وخاصة ما يتعلق بالسجناء السياسيين وعائلاتهم.

وأيضـاً من هنـاك تنظم الحملات من أجل المفقودين ويستنكر التعذيب وكل أشكال الضيم.

قبل أشهر قليلة من دخولي السري، قامت الدكتاتورية بهجوم

* ساحة السلاح

* منـظمة ضمن الكنيسة الكاثوليكية تتقدم اليها عائلات المفقودين بشكواها، لدى هذه المنظمة الانسانية محامين واطباء وغيرهم، تقوم برفع الشكاوى الى السلطات وتساعد في البحث عن المفقودين والدفاع عن المسجونين.

دموي ضد منظمة الفيكاريا، انقلب هذا الفعل على الطغمة العسكرية وهدد استقرارها.

في أواخر شباط عام ١٩٨٥، اختطف ثلاثة أشخاص من قوى المعارضة بالقوة، وبما لايدع مجالاً للشك في هوية الفاعلين، اقتيد عالم الاجتماع خوسي مانويل بارادا، الموظف في الفيكاريا، بالقوة وبمرأى من أعين أطفاله الصغار أمام مدرستهم، حدث ذلك في نفس الوقت الذي أغلقت فيه الشرطة حركة المرور في المفارق المؤدية لتلك المنطقة، أثناء ذلك كانت طائرات الهليوكوبتر العسكرية تحوم فوق ذلك القطاع. أما الاثنان الآخران فقد اعتقلا في أماكن مختلفة من المدينة، وفي ساعات متباينة. أحدهم كان مانويل غررو، رئيس اتحاد موظفي التعليم في تشيلي، والاخر كان سانتياغو ناتيغو، رسام غرافيك، مشهور على صعيد حرفته، حتى تلك اللحظة لم يكن ليعُرف له أي انتماء أو نشاط سياسي. وإمعاناً في احتقار الثقافة الوطنية.

في الثاني من آذار عام ١٩٨٥ عُثر على الجثث الثلاث مذبوحة، وقد بدا عليها آثار القسوة الوحشية، وفي طريق مهجور جوار مطار سانتياغو الدولي. صرح الجنرال مندوزا دوران، قائد قوة حفظ الأمن، وعضو الطغمة العسكرية للصحافة آنذاك بأن جريمة قتل الثلاثة هي نتاج لصراعات الشيوعيين الداخلية، والتي توجهها موسكو. استسفه الرأي العام الوطني الجنرال وتصريحه، وأشار إلى الأيدي المرتكبة لهذه المجزرة، اضطر الجنرال أن يترك الحكومة. منذ تلك اللحظة، شطبت أيدٍ مجهولة اسم شارع بوينتي، أحد الشوارع الأربعة التي تتجه إلى بلاثا دي لاس ارماس من على اللائحة، ووضعت بدلاً عنه الاسم الذي يعرف به الآن، شارع خوسي مانويل بارادا.

* رئيس الكنيسة الكاثوليكية قبل وبعد الانقلاب، احيل على التقاعد لتجاوزه السن عام ١٩٨٥، محبوب في اوساط التشيليين لصلابة مقارعته للنظام على عكس الرئيس الحالي المشبوه بتواطئه مع النظام.

«أهنئك لكونك اورغوائي»

سوء طالع تلك المأساة الوحشية لازال يعبق في الهواء الصباحي لذلك اليوم الذي مررنا فيه أنا وفرانكي صوب بلاثا دي لاس آرماس. شاهدت فريق التصوير في المكان الذي حددته مع غراسيا في الليلة السابقة. تنبهت إلى إجتيازنا. حتى تلك اللحظة لم تعطِ أية تعليمات الى المصور. عندها انفصل فرانكي عني، واشرفت شخصياً على الفيلم حسب الطريقة التي كنا قد قررناها سابقاً مع مديري الفرق الثلاث. أول ما فعلته كان قيامي بجولة استطلاعية في الشوارع المرصوفة بالحجارة والمخصصة لحركة المشاة، أتوقف في أماكن مختلفة اشير فيها لغراسيا، اللحظات والاتجاهات التي يجب أن تصور فيها عندما أعيد الكرة في جولتي. أثناء ذلك علينا ألا نبحث في تفاصيل تثير الشبهات، وتلفت نظر قوى الأمن المتسترة في الشوارع، خصصنا صباح ذلك اليوم فقط كي نتعامل مع البيئة المحيطة كغيره من الأيام، بينما نعير اهتماماً خاصاً لتصرف الناس، كما تخيلتها في الليلة الفائتة، أقل اتصالاً فيما بينها من أي وقت مضى. تمشي بسرعة، دون اهتمام بأي شيء يذكر، وبالكاد لما يحدث مع وقع خطواتهم، وحتى أن الذين كانوا يتحاورون يقومون به في صمت ولاتتحرك أياديهم كي تساعد كلماتهم، كما أذكره عن التشيليين في السابق ومازال يقوم به التشيليون في المنفى.

كنت أسـير بين الجمـوع، أحمـل في جيب قميصي، مسجلة صغيرة، حساسة جداً، كي التقط حوارات عابرة ساعدتني في أفضل تنظيم، ليس في البرنامج الاول فقط وانما على مدار الفيلم.

بعد أن تحددت نقاط التصوير، جلست أكتب ملاحظاتي جوار سيدة كانت تتشمس في أحد مقاعد الساحة ذات الطلاء الأخضر، وقد حفرت أجيال عدة من العشاق بواسطة السكاكين في خشبها قلوباً وأسماء.

كالعـادة انسى دفتر مذكراتي، دونت ملاحظاتي على قفى علبة سجائر الجيتان، تلك السجائر الفرنسية الرفيعة، والتي اشتريت كمية منها في باريس. هذا ما فعلته طوال فترات التصوير، وإن لم يكن لهذا الغرض احتفاظي بهذه العلب، لكن هذه الملاحظات نفعتني في يوميات رحلتي ومنها أعدت تركيب دقائق الرحلة في هذا الكتاب.

بينـما كنت أكتب ذلـك الصبـاح في بلاثـا دي لاس آرماس، لاحظت أن السيدة الجالسة الى جواري كانت تنظر اليّ بمواربة، فيها سكينه الكبار سناً، زيها على النمط القديم للطبقات دون المتوسطة، تضـع قبعة بالية، ومعطفاً ذا ياقة من الجلد. لم أفهم ما كانت تفعله هناك، وحيدة وصامتة، دون أن تنظر صوب شيء محدد. وحتى لا تعير اهتـمامـاً للحـمائم التي كانت تحوم وتحط على رؤوسنـا، وتنقر أطراف أحذيتنا، أبداً لم أفهم ولا حتى لماذا قالت لي لاحقاً انه لحقها البرد أثناء القداس، فخرجت لتتشمس دقائق قبل أن تدخل، وتأخذ القطار في النفق الأرضي. بينـما كنت أقرأ الجريدة، لاحظت أنها تتفحصني من أخمص الأقـدام إلى الرؤوس، لابد وقد استرعتها ملابسي غير المألوفة بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا السير في الساحة تلك الساعة، تبسمت لها، وسألتني من أكون. ضغطت ضغطة خفيفة على جيب القميص

دون أن تلاحظ أنني شغلت بها. آلة التسجيل.

قلت لها: ـ اورغوائي

قالت ـ آه ـ أهنئكم لحظكم ايها السادة.

كانت تقصد من وراء ذلك عودة النظام الانتخابي في الاوروغواي، كانت تتحدث بحنين دافىء عن ماضيها الخاص، صورت لها نفسي جاهلاً، كي توضح لي أكثر، ولكنها لم تروِ لي شيئاً عن حاضرها، تحدثت لي ودون تحفظ عن قلة الحريات الشخصية ومآسي البطالة في تشيلي، حتى وصلت إلى لحظة ما اشارت فيها الى العاطلين الجالسين على المقاعد والمهرجين والموسيقيين، والمخنثين، الذين تتكاثر اعدادهم يوماً بعد يوم، قالت لي: ـ انظر الى ذلك الشخص، مضت أيام ينتظر صدقة. انهم لايعملون، هناك جوع في بلدنا.

تركتها تتحدث ثم نهضت لابدأ جولتي الثانية في الساحة بعد أن مرت نصف ساعة على جولتي الأولى، لذلك أشارت غراسيا على المصور بالتصوير دون أن تقترب مني، حريصة على أن لايلفت نظر الشرطة بشكل خاص. لكن الأمر كان على عكس ذلك، حيث انهم لم يكونوا ليغيبوا عن نظراتي، كنت متعلقاً بمشاهدة تصرفاتهم وسلوكهم.

دوماً انتشر الباعة المتجولون في تشيلي، لكنني لا أذكر أنهم كانوا يوماً بهذه الكثرة، يصعب أن تجد موطىء قدم في المركز التجاري للمدينة دون أن تصادفهم بصف طويل صامت، يبيعون كل شيء، كثرة وجودهم تعكس عمق المأساة الاجتماعية. الى جوار طبيب عاطل عن العمل، مهندس لايعمل وسيدة بأريحية مركيزة، تبيع بابخس الاثمان ملابس أيام عزها، هناك أطفال بدون آباء تعرض مسروقات، أو نساء بائسات يبعن خبزاً عَجَنَّهُ بأيديهن، لكن غالبية محترفي التعاسة هؤلاء انغمسوا في كل شيء إلا الحياة الكريمة، ورغمًا عن وضعهم فإنهم

يظهرون ماليس لديهم في الواقع، كما كانوا في أيام عزهم. قادني سائق أجرة.

كان تاجـراً ميسـوراً للأقمشة في جولة سياحية أثناء التصوير، وطاف بي لساعات عدة في وسط المدينة، ورفض أن يقبض أجرته. أثناء تصوير بيئة الساحة، كنت أسير بين الناس، التقط اثناءها مقطوعات من حوارهم، لتـوضيح الصـورة المرافقة، حريصاً على أن لاأظهر أحداً على الشاشة. كنت ألاحظ أن غراسيا ترقبي باهتمام من الزاوية الأخرى، تتابع توجيهاتي للبدء بتصوير البنايات الأكثر ارتفاعاً، وابتداءً من الأعـلى ومن ثم انزال زاوية تصوير الكاميرا رويداً رويداً ومن ثم تصوير مافي الجوار وأخيراً تصوير قوات الامن والتركيز على تصوير العنف في وجوههم. يشاهد بشكل واضح أن الساحة تعج بالحيوية مع اقتراب الظهيرة. مع هذا لاحظوا سريعاً حركة الكاميرا، شعروا بأنهم مراقبون، وطلبوا من غراسيا التصريح الذي يؤهلها التصوير في الشارع، شاهدت كيف أظهرته لهم بسرعة.

اطمأن الرجل لذلك، فواصلت جولتي وأنا أشعر وكأن ثقلاً قد سقط عن ظهـري، فيما بعد عرفت أن رجل الأمن طلب منها بأن لا تلتقط صوراً لهم. ولكن لم تكن لديه حجة، فهذا الاستثناء غير موجود في التصريح، شرحت له صفتها كايطالية، وانها لا تتقبل أي أوامر لا ترتأيها مناسبة أثار ذلك اهتمامي، واكد لي انه وبما لايدع مجالاً للشك ان المميزات الايجـابية التي افـترضناها مسبقاً عندما اخترنا فريقاً اوروبياً للعمل في تشيلي كانت في محلها.

« ومن مكث ، فمنفي في وطنه »

أصبح رجال الامن هاجسي ، درت مرات عدة بالقرب منهم ، انتهز فرصة للحديث فجأة لم استطع أن أقاوم ما يدفعني في داخلي أن اقترب الى مجموعة منهم ، وسألتهم بعض الاسئلة ، عن بناية البلدية ذات الطراز الكولونيالي ، والتي زعزعها الزلزال في آذار الماضي ، والتي كانوا يعيدون بناءها .

ردّ عليَّ رجل الأمن الذي أجابني دون أن يلتفت اليّ ، ولهذا لم يغب عن بصري ما كان يدور في الساحة ، تصرف رفيقه مثله ، ولكنه بين الفينة والفينة كان يختلس النظر إليّ من وراء كتفه ، نفذ صبره ، فقد استشف أن اسئلتي لغاية في نفس يعقوب ، بعدها واجهني بنظراته الثاقبة وأمرني :

ـ هيا امشِ :

عندها فقدت اعصابي فبدلاً من ان اطيعهم ، تمردت على تقمصي وانكفائي الذي يكبلني ، هيأت نفسي لاعطيهم درساً في السلوك مع أجنبي مسالم دب على الشرطة بفضوليته بدون شك ، لم أتنبه الى أن لهجتي الاوروغوائية لا تحتمل اختباراً صعباً ، حتى سئم من جدلي الوطني . وأشار إليّ بإبراز بطاقتي . ما عانيت في لحظة من الرحلة شحنة من الخوف كتلك . فكرت في كل شيء :

كسب الوقت ، المقاومة ، أولي الادبار بسرعة وأنا على بينة من أنهم سوف يدركوني ، فكرت في ايلينا ، اين هي في هذه الساعة ، ساعتها رأيت بريقاً حيث كان المصور يلتقط ما يجري معي ، ذلك لايمكن أن يدحض اعتقالي بنشره في الخارج . كان فرانكي يتسكع في الجوار ، يشاهد ذلك ، فقد كنت واثقاً انني لا أفارق نظراته ، اسهل شيء بالمقابل أن أظهر جواز سفري ، والذي اختبرته في مطارات عدة . بالمقابل كنت مرتعباً ، أن يقوموا بتفتيشي ، تذكرت في تلك اللحظة خطأً قاتلاً كان يزحف معي ، في نفس الحقيبة التي كان فيها الجواز كانت معي البطاقة الشخصية التشيلية الحقيقية ، واالتي تركتها فيها لعدم اكتراثي ، وبطاقة رصيد بنكي باسمي الحقيقي ، تنبهت الى أنه لم يبق أمامي سوى الخنوع الى الخطر الاقل فظاعة ، اظهرت الجواز ، لم يكن عند رجل الامن حتى الثقة فيما يفعله ، نظر الى الصورة ، واعاده لي ، وسأل بطريقة أقل جفافاً :

ـ ما الذي تود معرفته حول هذه البناية ؟

قلت ـ لا شيء ـ هراءٌ مني .

ذلك الحادث كان علاجاً لي في بقية الرحلة ، للتشنج الذي كان يعتريني من رجال الأمن ، منذ ذلك الوقت عدت لاأراهم بشكل طبيعي ، كما يراهم أي مواطن تشيلي ذي اضبارة نظيفة ، أو كما يروهم أولئك الذين يعيشون في الخفاء ـ وما اكثرهم ـ طلبت من الشرطة مرتين أو ثلاث المساعدة بحسب الحاجة ، قاموا بخدمتي بطريقة حسنة من بينها لا أقل ساعدوني وقادوني الى المطار بباص لهم حتى أتمكن من اللحاق بالطائرة المغادرة للبلاد ، دقائق قبل أن يكتشف رجال الأمن وجودي في سانتياغو . لم تستطع ايلينا أن تتفهم كيف يقوم أحدهم ويتلاسن مع الشرطة في وضع حرج كهذا ليس إلا « كي يفش خلقه »

في حين أنها قد تؤدي الى تصدع علاقاتنا في العمل والذي يدور حول مسائل سرية وخطرة ، لحسن حظي أنني ندمت على تصرفي الاهوج قبل ان تنبهني هي أو غيرها بذلك .

ما إن اعاد رجل الامن الجواز ، حتى أعطيت الاشارة الى غراسيا بايقاف التصوير ، فرانكي من جهته ، والذي شاهد كل شيء من زاوية في الساحة ، استعجل الاجتماع بي شغفاً مثلي ، لكنني طلبت منه أن يأتي ويأخذني من الفندق بعد تناول الطعام ، كنت أريد أن أبقى وحيداً .

جلست في مقعد لقراءة الجرائد اليومية ، كانت السطور تمر دون أن أراها ، لم استطع التركيز في شيء ولكن كان عظيمًا ذلك الشعور الذي أحسسته بينما كنت جالساً هناك في ذلك الصباح الخريفي الرقيق .

فجأة ، دوى مدفع عن بعد مشيراً الثانية عشرة ، طار الحمام مذعوراً ، واطلقت اجراس الكاتدرائية العنان لنوطة اغنية فيوليتا بارا* المهيجة للمشاعر :

شكراً للحياة ، لم احتمل ذلك . فكرت في فيوليتا ، فكرت في جوعها ولياليها الباريسية بدون سقف ، فكرت في نبلها الأهل لأي اختبار ، رفضها دوماً كان مقياساً ، لم يشعر أحد باغانيها ، استهزأوا من تمردها ، رئيس ذو مجد فرض عليه الموت في تبادل لاطلاق النار ، وأن ترزح تشيلي تحت الفأس الاكثر دموية في تاريخها ، وحتى « فيوليتا بارا » كان عليها الموت على يدها ، ليكتشف الوطن عمقها الانساني وروعة شدوها . حتى رجال الامن كانوا يستمعون اغانيها باهتمام وهم على بينة فيما كانت . وما يجول في خواطرها ولماذا كانت تغني بدلاً من البكاء . كم كانت تحتقرهم ، ولو أنها ظهرت تلك اللحظة هناك لشاهدت معجزة ذلك الخريف البهي ,

* مطلع الاغنية : شكراً للحياة التي اعطتني الكثير، وهي من اكثر الاغنيات باللغة الاسبانية شهرة.

رحت شغفاً انتشل ذكريات الماضي شيئاً فشيئاً فذهبت وحدي الى مطعم شعبي في المنطقة المرتفعة من المدينة ، حيث اعتدنا أنا وايلي تناول الطعام فيه عندما كنا خطيبين . كان المكان ذاته ، تناثرت الطاولات في الهواء الطلق تحت الاشجار ، ازهار عدة انتزعت بتلاتها ، تعطي الانطباع وكأنه مهجور منذ مدة لم يكن هناك أحد . كان عليّ أن أرغي وأزبد كي يأتوا ويلبوا لي طلباتي ، تأخروا على خدمتي حوالي الساعة كي يقدموا أخيراً لي قطعة شهية من اللحم المشوي . وانا على وشك الانتهاء ، دخل رجلان يعرفان أنني وايلي كنا زبائن دائمين .

كان يدعى ارنستو ، يطلقون عليه (نيتو) ، أما هي فتدعى (البيرا) ، كان لديهما محل قائم على بعد اقدام من هنا يبيعون فيه أختاماً وميداليات للقديسين وصوراً وصناديق دينية وسبحاً وشموعاً وزهوراً للجنائز ، لا تبدو في سيماهم حرفتهم ، ساخري ومرحي المزاج ، في الاوقات الطيبة وفي بعض ايام السبت اعتدنا البقاء هناك حتى ساعات متأخره نشرب النبيذ ونلعب الورق ، عندما رأيتهما يدخلان ويأخذان بايديهم ، كما كانا دوماً . . لم يثر دهشتي فقط اخلاصهما لنفس المحل بعد كل هذه التغيرات في العالم ، لكن ما ادهشني كم طعنا في السن ، لا اتذكرهما كزوجين اعتياديين وإنما كعروسين كهلين ، شغفين ورشيقين ، الآن يبدوان عجوزين بدينين كئيبين بديا لي كمرآة من خلالها رأيت فجأة شيخوختي . لو أنهما عرفاني لتوجها اليّ بنفس النظرة ، لولا ان وفر درع الاوروغوائي الثري الحماية لي .

اكلا على طاولة مجاورة ، يتحاوران بصوت عالٍ لكن ليس بنفس سرعة الايام الماضية ، أحياناً وخلال ذلك كانا يسترقان النظر اليّ بفضول ، بدون أدنى شك كم كنا سعداء في زمن ولى على نفس الطاولة .

في تلك اللحظة فقط تنبهت الى سني المنفى كم هي طويلة ومؤلمة ليس فقط لنا كما كنت اتصور دائمًا وانما أيضاً للذين مكثوا في وطنهم .

الفصل الرابع

نواحي سانتياغو الخمس

قمنا بالتصوير في سانتياغو خمسة أيام أخرى ، كانت فترة مناسبة لاختبار حسن برنامجنا ، اثناء ذلك كنت على اتصال دائم بالهاتف مع الفريق الفرنسي ، في الشمال ، والفريق الهولندي في الجنوب ، صلتي مع ايلينا كانت فعالة بحيث أنه شيئاً فشيئاً قمنا باجراء مقابلات مع من اردنا من قيادة المقاومة السرية في الداخل ، وكذلك مع شخصيات سياسية تعمل بطريقة مشروعة . من ناحيتي ، تابعت وباتقان تقمصي ، وذلك كان تضحية قاسية بالنسبة لي ، فقد كان هناك العديد من الأقارب والأصدقاء ، ممن كنت شغفاً لرؤيتهم ـ بدءاً من والدتي ـ وكذلك حنيني لعيش العديد من لحظات شبابي ، لكنهم كانوا في عالم محظور عليّ ، على الاقل بينما كنا نضع اللمسات الاخيرة على الفيلم لويت فيها عنقي وتبعت أحاسيسي ، رضخت لوضع غريب لمنفي في وطنه ، كانت أكثر صور النفي علقماً ، مرات يسيرة كنت مرافقاً فيها في الشوارع ، حيث كنت دوماً أشعر بوحدانيتي ، لكن في كل الامكنة التي

كنت فيها ، كانت عيون المقاومة ترعاني ، ودون ان الاحظها ، كنت أطلب مسبقاً ان يكفوا عن مرافقتي عندما كنت ألتقي أصدقائي أو من لي ثقة عالية بهم حتى لا أحرجهم .

لاحقاً ، وبعد ان انجزت ايلينا مهمتها كدليلي المساعد في العمل ، كانت لدي القدرة أن أستمر قدماً لوحدي ، دون ان ارتكب خطأ .

انجز الفيلم كما كان مقرراً له . لم يعاني أي من معاوني أدنى مشكلة جراء عدم اهتمامي أو خطأ مني . أحد المسؤولين عن العمل قال لي وبروح طيبة بعد ان خرجنا من تشيلي :

ـ دوماً في العالم ومنذ ان عرفت البشرية ، اغتصبت ولمرات عدة وبطرق خطرة جداً العديد من التدابير الامنية .

على جميع الاحوال ، في أقل من اسبوع قمنا بعملنا الاساسي ، في سانتياغو انهينا التصوير ، بخطة مطاطة ، تسمح لنا بان نقوم بأي تغيير على الارض ، وقد ثبت لنا وبالملموس انها الوسيلة الوحيدة للعمل في مدينة واسعة يمكن وفي اي لحظة ان تفاجأ بمستجدات ، كما واننا بحاجة الى وسائل لا ثير الشبهات .

حتى ذلك الآوان تنقلنا في ثلاثة فنادق . كان الكونكيستادور مريحاً وعملياً ، ولكن كان محط انظار السلطة ، وكانت لدينا اسباب كي نشعر انه اكثر الفنادق عرضة للمراقبة . شأنه في ذلك شأن كل فنادق الدرجة الاولى والتي يرتادها الاجانب بكثرة والذين تحوم حولهم اجهزة الدكتاتورية بشبهاتها بشكل اساسي ، اما فنادق الدرجة الثانية ، فعلى الاقل تصادفك مرونة في المراقبة عند الدخول او الخروج ، كنا نخاف ان نلفت الانظار نحونا اكثر من ذلك ، ولهذا كان علينا ان نغير محل اقامتنا كل يومين او ثلاثة دون ان نغير درجة الفندق وذلك لزيادة اطمئناننا ، ولم نفكر بالعودة اطلاقاً الى اي فندق دخلناه ، كنت اخمن

تخميناً سيئاً لحظنا اذا ما عدنا الى مكان اقمنا به . ترسخ هذا الاعتقاد لدي في ١١ أيلول عام ١٩٧٣ ، اثناء قصف الطيران لقصر المونيدا ، عندما كان الجهل بما يجري يطبق على المدينة . استطعت الهرب دون معوقات من مكاتب « تشيلي فيلمز » وتوجهت الى حيث رفاقي الدائمين لبحث امكانية مقاومة الانقلاب العسكري ، وبعد ان اصطحبت في سيارتي مجموعة من الاصدقاء الذين كانت لديهم الاسباب المحقة للخوف على حياتهم الى حديقة « الفورستال » اقترفت خطأ فظيعاً بعودتي ، نجوت باعجوبة كما رويته سابقاً .

زيادة في الاحتياطات ، اثناء تغيير مواقعنا في الفنادق ، قررت مع ايلينا ان نأخذ غرفاً منفصلة بعد التنقل الثالث ، كل بشخصية جديدة ، مرة كنت اسجل نفسي على انني مدير شركة تجارية وهي سكرتيرة . واحياناً كما لو كان الواحد منا لا يعرف الآخر . ايضاً فان هذا الانفصال البطيء فيما بيننا كان يعكس نفسه ايجاباً على علاقتنا ، وفي عملنا ، رغماً عن تزايد الصعوبات قدماً في الخطة الشخصية .

من بين العديد من الفنادق التي سكناها ، فقد انزعجنا فقط في فندقين . اولاً ، في الشيراتون . في نفس ليلة دخولنا فيه ، عندما بدأت أغط في نومي ، قرع جرس التلفون على المنضدة الصغيرة ، كانت ايلينا قد ذهبت الى اجتماع سري دام اكثر من المتوقع ، وتوجب عليها ان تنام في الدار . حيث فاجأها حظر التجول والذي كثيراً ما كان يحدث . اجبت مشوشاً ، دون ان أعرف أين هي ، والاسوأ من ذلك ، دون ان اتذكر من انا في تلك اللحظة ، سأل عني صوت امرأة تشيلية لكن باسمي المستعار . كنت على وشك الرد بانني لا أعرف ذلك الشخص ، عندما فرغت ، استيقظت على ان احدهم يبحث عني ، في هذه الساعة وفي هذا المكان .

كانت عاملة الهاتف، في الفندق ، وكأنها تتصل من مكان بعيد ، في ثانية دار في رأسي انه لا احد يعرف غير ايلينا وفرانكي أين أنا . كما ولا يحتمل ان يقوم احدهما ويناديني بهذه الطريقة ، وفي هذه الساعة من الفجر ، والمعضلة ان المكالمة من مكان بعيد ، شعرت بانها تتعلق بحياة او موت . قررت ان اجيب .

انفتحت عليّ امرأة تتكلم الانكليزية بصوت انثوي دافىء لا يتوقف ، تناديني - حبيبي ، قلبي الجميل ، يا عسلي ، وعندما وجدت منفذاً ، لافهمها بانني لا اتكلم الانكليزية ، اقفلت السماعة على اهات جميلة قاتلة : قرف كان البحث عن الحقيقة مع عاملة الهاتف بدون جدوى ، الى جانب انه بعد التأكد تبين ان هناك مقيماً آخر في نفس الفندق يحمل نفس الاسم الذي احمله في جواز سفري المزيف . لم استطع النوم دقيقة ، وسريعاً دخلت ايلينا في السابعة صباحاً ، وانتقلنا الى فندق آخر .

الفزع الآخر حل في فندق كاديرا البائس القديم - والذي تطل نوافذه الامامية على قصر المونيدا ويبدو منها بشكل كامل - انتابنا الرعب لما حدث بعد ان تركناه . حيث بعد أيام قليلة من اقامتنا هناك ، حل في الفندق شاب وفتاة على انهما في شهر العسل ، حلا في الغرفة المجاورة لغرفتنا ، ونصبا قاعدة كاميرا للتصوير ، وركزا قذيفة بازوكا مؤقتة عليها وموجهة ضد مكتب بينوشيت . كان التوجيه وآلية العمل مضبوطين تماماً ، وكان بينوشيت في مكتبه في الساعة المحددة ، لكن ارجل القاعدة انفرجت مع انطلاق القذيفة ، فانطلقت دون توجيه وانفجرت في وسط الشقة .

« نواحي سانتياغو الخمس »

قررت مع فرانكي يوم الجمعة من اسبوعنا الثاني ان نبدأ في اليوم التالي بالسفر بواسطة سيارة وعبر البلاد ، اولى محطاتنا « كونسبسيون » ، حتى ذلك الاوان ، ما زال امامنا في سانتياغو اجراء مقابلات مع قادة سريين وعلنيين ، والتصوير داخل « المونيدا » ، كرست ايلينا جهودها للمهمة الاولى ، التي كانت تتطلب تحضيراً معقداً ، كانت الموافقة على التصوير داخل قصر المونيدا جاهزة ، لكن الرخصة الرسمية المخطوطة لن تسلم قبل الاسبوع القادم . وهذا ما أتاح لي ولفرانكي ان ننهي عملنا في انحاء البلد ، عندها اتصلنا هاتفياً مع الفريق الفرنسي في الشمال ليعود الى سانتياغو حال انتهاء برنامجه هناك ، وطلبت من الفريق الهولندي الذي كان يواصل برنامجه في الجنوب ، ان يتوجه الى بويرتومونت وينتظر توجيهاتي هناك . وان استمر في عملي كالمعتاد مع الفريق الايطالي . وكما كان مقرراً ، استغللنا الفرصة يوم الجمعة لالتقاط بعض المشاهد لي في الشوارع العامة ـ حتى لا تنكر السلطات الدكتاتورية يوماً انني كنت على رأس فرق التصوير داخل تشيلي ، التقطت صوراً لي في ثلاث مناطق رئيسية في سانتياغو ، جوار قصر المونيدا ، وفي حديقة الفورستال وجسور المابوشو* ، وتلة سان كرستوبال وكنيسة سان فرانسيسكو ، خلال الايام السابقة كرست غراسيا نفسها للبحث عن هذه الاماكن ودراسة اماكن توضيع

* المابوشو : اسم هندي احمر قديم

الكاميرات ، بحيث لا تبدد دقيقة من وقتنا ، وعليه فقد كفانا تخصيص ساعتين فقط في كل مكان ، او عشر ساعات بشكل مجمل . بحيث اظهر عليهم بعد ربع ساعة من وصولهم ، وبدون ان اتحدث مع اي كان من اعضاء الفريق ، وعلي ان انخرط في جو المكان ، بينها اشير على غراسيا ببعض التوجيهات المتفق عليها ، يحتل قصر المونيدا مساحة حي باكمله ، بنـايتـاه الـرئيسيتـان ، المطلة على ساحـة بولينس ، في الألاميدا** ، حيث مقر وزارة الخارجية ، والاخرى المطلة على ساحة دي كونستتشيون ، حيث مقر رئاسة الجمهورية ، تركت انقاض مكاتب الرئاسة بعد قصف الطيران للبناية في ١١ ايلول ، واقامت الحكومة في المكـاتب القـديمة لمنظمة التنمية التابعة للامم المتحدة UNCTAD ، البنـاية مكـونة من عشرين طابقاً ، اطلقت عليها الطغمة العسكرية الـشـغفـة لان تكـون شرعية ، اسم الشهيد الليبرالي دون دييغـو بورتاليس . أقاموا في تلك البناية حوالي عشر سنوات ، وعندما انتهت اعمال الترميمات الطويلة لقصر المونيدا ، والتي كان بضمنها انشاء حصن حقيقي اضـافي تحت الارض : اقبية منيعـة ، وممرات سرية ، أبواب للهرب ، ممرات للطوارىء تتصل بموقع عسكري كان موجوداً قبل ذلك بكثير تحت الاسفلت . ولكن في سانتياغـو يشعـر انصـار بينـوشيت بالارتبـاك حيال اثبـات وجـود رمز السلطة الشرعية (اوهيجينز)* في تشيلي ، والذي فقد اثناء قصف الطيران للقصر . في مناسبة ما حاول احد رجال بلاط الحكم العسكري ان يبتدع خرافة ، بان اوائل الضباط الذين اقتحموا المونيدا انقذوا الرمز من السنة النار ، لكن روايته تلك لم تنطل على احد .

قبل التاسعة صباحاً بقليل ، قام الفريق الايطالي بتصوير الصرح من ناحية الالاميدا ، امـا نصب أب الوطن ، برناردو أوهيجينز ، حيث

** الألاميدا : الطريق المحفوف باشجار الحور

* اوهيجينز : بطل من ابطال التحرير في تشيلي ١٧٧٨ ـ ١٨٤٢ .

اوقدوا فيها الآن شعلة غاز دائمة « شعلة الحرية » . ثم انتقلوا الى تصوير الصرح الثاني ، حيث كانت ثلة منتخبة من حرس القصر ، بابهى زينة وعزة ، تقوم بطقوس تغيير النوبة والتي تقوم بها مرتين في اليوم ، دون ان تثير اهتمام العديد من الناس ، علمًا بانها في حمى العظمة مثلما في قصر بكنجهام . في الجانب نفسه كانت الحراسة والمراقبة مشددة . لدرجة انه ما ان شاهد الشرطي الفريق الايطالي يجهز نفسه للتصوير ، حتى اسرع في طلب التصريح الخطي ، والذي اظهروه لهم في جانب الالاميدا . لا يمكن الخداع كثيراً ، فقد ظهرت الكاميرا في كل مكان تقريباً في المدينة ، وتقدم بوليس يطلب التصريح ، في تلك اللحظة ، وصلت ، استمر اوغو المصور الفتي اللطيف ، والمنطلق كياباني مغامر ، في التصوير ، بينما جهز هويته في يده الاخرى دون ان يتنبه الشرطي لذلك .

على بعد اربعة مفارق من ذلك المكان ، تركني فرانكي قبل ذلك بربع ساعة ، على ان يعود ليأخذني وعلى بعد اربع مفارق الى الامام ، بعد ربع ساعة . كان صباحاً بارداً وضبابياً ، بكل أصالة خريف تلك الايام التي عهدتها ، كنت ارتجف من البرد ، رغمًا عن المعطف الشتوي . حثثت الخطا وانا اجتاز المفارق الاربعة لاتلقى الدفء بين الجموع المستعجلة ، ثم تابعت خطواتي الحثيثة كي اعطي مجالاً للفريق ابين فيه نفسي . عندما عدت ، التقطت الصور لمروري امام المونيدا على عجل . بعد ربع ساعة ، لملم الفريق عدته وتوجه صوب الهدف التالي . وصلت حيث سيارة فرانكي في شارع ريكيلمي ، امام محطة مترو لوس هيرويس ، واقلعنا في الحال .

استغرق العمل في حديقة الفورستال اقل مما كان محدداً له ، لانني ما ان شاهدته ، حتى فهمت ان اهتمامي به لم يكن الا شيئاً يخصني .

في الواقع فهو مكان جميل جداً ، واحد الاماكن البارزة في سانتياغو ، فوق هذا وذاك فانه في تلك الجمعة الهادئة كانت الرياح تسقط الاوراق المصفرة ، اكثر ما كان يشد اهتمامي بحثي عن شريط ذكرياتي . هناك كلية الفنون الجميلة ، قدمت في اروقتها اولى قطعي المسرحية ، وبالكاد آنذاك كنت قد قدمت من قريتي . ثم فيما بعد ، وقد اصبحت مخرجاً سينمائياً مبتدئاً ، كان عليَّ ان اقطع على أقدامي الحديقة كل الايام تقريباً اثناء العودة للبيت ، على الضوء الآتي من بين الاشجار عند الغروب ، دوماً ولا زالت تتوقد في جوانحي مع ذكرى اوائل افلامي . لم يكن لدي المزيد مما اقوله . كفانا ان قمت بمشوار قصير بين الاشجار التي كانت تتعرى من اوراقها على صوت رذاذ المطر ، واستمريت في سيري حتى المركز التجاري حيث ينتظرني فرانكي .

استمر الطقس صحواً وبارداً ، لاول مرة ارى سلسلة الجبال صافية منذ وصولي . فسانتياغو تقع في بطن الجبال ، ولهذا دوماً تتغطى بضباب التلوث . كما هي العادة كان هناك العديد من الناس في الحادية عشرة صباحاً في شارع استادو ، وكانوا يدخلون العرض الصباحي الاول في سينما ركس حيث كان يعرض فيلم اماديوس* لـ ميلوس فورمان . والذي كنت متلهفاً لمشاهدته ، ولكنه كان عليَّ ان أبذل جهداً عظيمًا حتى لا أدخل .

---

* اماديوس : فيلم يحكي سيرة حياة الموسيقار الشاب موزارت في فيَّنا

« حماتي على زاوية الشارع »

لمحت العديد من معارفي ، في الايام السابقة ، وبينما كنا نصور: ـ صحفيين ، ساسة ، مثقفين . لا اتذكر ان احداً منهم عرفني . وهذا ما عزز ثقتي . في تلك الجمعة ، حدث ما كان يجب ان يحدث عاجلاً ام آجلاً ، رأيت امرأة مميزة ، تمشي باتجاهي ، تلبس زياً قطنياً من قطعتين كريمي اللون ، وكأنها في الصيف ، عرفتها عندما شارفت على بعد أقل من ثلاثة أمتار . كانت ليو ، حماتي : كنت قد التقيتها في اسبانيا قبل أقل من ستة شهور ، كانت تعرفني جيداً ، لدرجة لا يصعب فيها ان تميزني عن قرب . دار في خلدي ان أقابلها . لكنني ساعتها عدت وتذكرت ان اتحكم بنبضات المشاعر الطبيعية ، كثيرة هي الناس التي عاشت في الخفاء ، بدون ان تواجههم مشاكل ، لكنهم عرفوا من الخلف ، كنت على ثقة كبيرة بان حماتي سوف تتكتم عليّ اذا ما اكتشفتني ، لولا انها لم تكن لوحدها ، كانت تتأبط ذراع أخت لها ، الخالة مينا ، والتي كانت تعرفني ايضاً ، كانتا تتحادثان بصوت منخفض ، لو كانت الظروف اخرى لما اكترثت ، حيث خفت من هول المفاجأة عليهما ، ليس بغريب ان تصيحا لهول المفاجأة في وسط الشارع : « ميغيل ، بني ، أدخلت البلاد ، يا للعظمة » . او أي شيء من هذا القبيل ايضاً . فان معرفة سر وجودي في تشيلي سيشكل عليهما خطراً كبيراً ، لا مجال امامي لعمل شيء سوى ان اواصل سيري ، وانظرها عن كثب وانا على اهبة الاستعداد لان أملص نفسي من الوضع اذا ما شاهدتني . بالكاد رفعت عينيها اثناء سيرها ، وتواجهت مع عيني

الشـاقبتـين والمرعوبتين ، وهي تواصل حديثها مع الخالة مينا ، دارت نحوي ساهية لكنها لم تراني ، ثم تواجهنا عن قرب بحيث اشتممت عطرهـا ، وشـاهـدت عينيها البراقتين العذبتين ، وسمعت ما كانت تقوله : « مشاكل الابناء تزداد عندما يكبروا » ولكنها تابعت مسيرها مبتعدة .

قبل فترة حدثتها عن هذا اللقاء بالهاتف من مدريد ، ذهلت : لم اركـز عقـلي في ذلـك الـوقت ، كانت مصادفة بالنسبة لي ، شوشت افكـاري ، تأزمت من انفعـالاتي ، بحثت عن مكـان ، افكر فيه ، ودخلت سينما صغيرة حيث كانوا يعرضون فيلم (جزيرة السعادة) وهو فيلم ايطالي اجـدر بان يكون فلماً خلاعياً ، مكثت في الداخل عشر دقـائق شاهـدت رجالاً ، ممشوقي القوام جميلين ، ونساء جذابات ، بديعات التكوين ، يقفزون بسعادة الى البحر في يوم مشرق في مكان ما من الجنة . لم احاول ان ادقق في الفيلم ، اعطتني الظلمة مجالاً كي استعيد توازني بعد الانفعال ، عندها فقط فهمت الى اي مدى كانت ايامي السابقة اعتيادية وهادئة .

في الحادية عشرة والربع ، اقلني فرانكي من زاوية الشارع بين استادو والالاميدا والى حيث محطة التصوير القادمة : جسور المابوشو ، يخترق نهر المابوشو المدينة في مجراه الحجري ، عليه جسور فائقة الجمال ، وقد صمم تصميماً ساحراً من الفولاذ كي يحافظ عليه من الاعاصير . في ايام الجفاف ، وكما كان الوضع في السابق ، ينحسر مجراه ويصبح خيطاً من الطين السائل ، ويظهر في مركزه مستنقع بين براكيات بائسة ، في ايام المطر يفيض المجرى على ضفافه لكثرة الامطار الهاطلة والمنسابة اليه من سلسلة الجبال المحيطة ، فتطفو البراكيات مثل قوارب في بحر من الطين .

في الاشهر التي تلت الانقلاب العسكري ، اشتهر نهر المابوشو في انحاء العالم ، وذلك لكثرة الجثث المنكل بها والتي كانت تجرفها مياهه ، بعد الهجمات الليلية المتكررة للقوى العسكرية على الاحياء الفقيرة : الاحياء السكنية الاكثر شهرة في سانتياغو ، لكن مأساة مابوشو ومنذ بضع سنين ، وعلى مدار العام ، تتمثل في صراع الجموع الفقيرة من الكلاب والعقبان ، على فضلات الاكل ، الملقاة في المجرى من الاسواق الشعبية . انه الجوع الذي قدمته الطغمة العسكرية وبوحي من مدرسة شيكاغو .

كانت تشيلي وحتى ايام حكم الليندي بلداً متواضعاً ، وبرجوازيتها المحافظة آنذاك كانت تشعر بوطنيتها ولديها قيمها . كي تقدم الطغمة العسكرية الازدهار والرفعة ، حالاً ، الغت التأميم الذي قام به الليندي ، وباعت البلد للرساميل الخاصة والاحتكارية الاجنبية . حصيلة ذلك كان الانطلاق في فتح الباب امام الكماليات ، وما يخلب الابصار ، وكذلك الاسفاف بالاهتمام بمظهر وزينة البلد وكأنها كرنفالاً احتفالياً ، كل ذلك لم يعد بالنفع على التشيليين .

في خمسة اعوام فقط تم استيراد حاجيات اكثر مما استورد خلال المائتي عام الفائتة ، حيث صرفت اموال التأميم ، وكذلك استهلك البنك الوطني أرصدته ، وتراكمت الديون الامريكية والخارجية ، انها الكارثة عند التسديد : فقد تهاوت الى الحضيض وعودات الدفع خلال الستة او السبعة اعوام في سنة واحدة . كانت الديون الخارجية على تشيلي في آخر عام حكم فيه الليندي أربعة مليارات دولار ، والآن فديونها تقريباً ثلاثة وعشرون ملياراً من الدولارات ، جراء التبذير ، قامت المعجزة العسكرية بجعل القلة الثرية اكثر ثراء ، وعمقت فقر غالبية التشيليين .

(الجسر الذي شاهد كل شيء)

جسر ريكـوليتـا على نهر المابوشو ، في وسط سوق الحياة والموت ، حبيب محايد : مفيد للاسواق وللمقابر . خلال النهار يفتح الجنائزيون الطريق بين جمع الناس . في الليل ، وعندما لا يوجد حظر للتجول ، فهـو طريق الـدفانون الوحيد الى نوادي التانغو ، اماكن ذكرياتهم في الضواحي البائسة حيث هم ابطال الرقص فيها .

اكثـر ما شد انتبـاهي تلك الجمعة ، بعد سنوات عدة ، دون ان اشاهد فيها الاضرحة ، تلك الاعداد الجمة من العشاق التي تتسكع متأبطة بعضها على ضفاف النهر ، يمارسون الحب وبتؤدة ، حيث تباع احـواض الـزهـور للاضرحـة ، وأسفـل الجسر ، دون اكتراث لمضي الزمن ، قبل سنوات عدة فقط شاهدت في باريس ممارسات كهذه امام اعين الملأ . بالمقابل ، تذكرت ما كانت عليه سانتياغو كمدينة لا تظهر مشاعرها بشكل جلي ، الآن اصطدم مع ممارسات جريئة والتي بدأت تضمحـل شيئاً فشيئاً في باريس ، لدرجة اعتقدت انها ستختفي من العـالم . لذلـك تذكـرت ما قاله لي شخص هذه الايام في مدريد : « الحب يتفتح في ازمنة الطاعون » . قبل زمن الوحدة الشعبية ، كان الـرجـال التشيليون يرتـدون بدلات قاتمة ويحملون مظلات واقية من

المطر ، والنساء يتعلقن بالصرعات والموضات ، والمجلات الخاصة بـ « اوروبا » ، والاطفال بالبستهم كالارانب في عرباتهم ، طرح هذا ارضاً عندما اجتاحت رياح البيتلز ، وتغير الكثير ، فمال الناس الى الموضة التي لا تحدد الجنس . النساء قصصن شعرهن كالرجال ، وارتدين السراويلات الضيقة على الحوض ، والمتسعة عند الاقدام . ترك الرجال شعورهم تطول ، ايضاً كل هذا طرح ارضاً بسبب معاداة الدكتاتورية لكل ذلك . كل الجيل قص شعره قبل ان تقصه لهم قوات الجيش بالحراب ، كما وقد فعلوه في الايام الاولى للانقلاب العسكري . ذلك اليوم فقط وعلى جسور المابوشو خطر ببالي ان الشباب قد تغيروا . جيل الشباب الجديد تسلم المدينة بعد جيلي . اطفال العشر سنوات عند خروجي ، بالكاد كانوا قادرين على تقدير عمق مأساتنا . الآن هم في الثانية والعشرين . لاحقاً اكتشفنا وقائع جديدة عن الطريقة التي يمارس فيها هذا الجيل الحب على الملأ . كم تغيرت طريقة حياتهم وتفكيرهم عن الطريقة السابقة .

انهم هم الذين يحددون لهم اهواءهم ، طريقة حياتهم ، مفاهيمهم للحب ، للفنون ، للسياسة ، في وسط وغمرة فساد الدكتاتورية ، لا توجد وسيلة تمكن من السيطرة عليهم . تسمع الموسيقى باعلى درجة وفي جميع الانحاء ـ حتى في عربات البوليس المصفحة يسمعون دون ان يعرفوا ماذا يسمعون ـ اغنيات كوبية لسيلفيوروذوريفث* ، وبابلو ميلانيز . الاطفال الذين كانوا في المدرسة الابتدائية في سنوات سالفادور الليندي ، هم الآن قادة المقاومة ، وهذا ما تبين لي ايضاً ، وتأكدت منه ، وفي الوقت نفسه قض ذلك مضجعي ، وللمرة الاولى ساءلت نفسي اذا ما كان حصاد ذكرياتي يفيد في شيء ما ، حرك الشك في دقات من الشجن ، كي انهي برنامجي اليومي ، قمت بجولة سريعة في تلة

سان كريستو بال ، ومن ثم صوب كنيسة سان فرانسيسكو ، وقد تذهبت حجارتها مع الغروب . ثم طلبت من فرانكي ان يأتي بحقيبة سفر من الفندق ، وان يعود ليأخذني بعد ثلاث ساعات امام مدخل سينما ركس ، حيث دخلت لمشاهدة عرض فيلم أماديوس . وطلبت منه ان يخبر ايلينا باننا سنغيب عن الانظار لثلاثة ايام لا اكثر . ذهبت مخالفاً للقواعد المدروسة ، فعلى ايلينا ان تلازمني في كل اللحظات والامكنة ، لم استطع تجنب ذلك .

سافرت برفقة فرانكي الى كونسبسيون دون ان ابلغ احداً ، في قطار يقلع في الواحدة ليلاً .

الفصل الخامس

رجل يحترق
أمام الكاتدرائية

كان الهاما مفاجئا لي ، وبدون شك كنت محقا في ذلك ، فقد كان يبدو لي ان القطار هو الوسيلة الاكثر أمنا للسفر داخل تشيلي ، حيث لا توجد نقاط تفتيش تعترضنا ، كما في المطارات ، او على الطرق الخارجية ، وايضا حتى نستغل عدم قدرتنا على الاستفادة من الليل بسبب حظر التجول في المدن ، فرانكي لم يكن مقتنعا بذلك ، فهو يعرف بان اكثر وسائط النقل مراقبة هي القطارات ، لكنني تصلبت في رأيي واخذت أبين له ولهذا السبب فهي أكثر امنا ، حيث لا يخطر ببال اي شرطي بان متخفيا يركب قطارا عرضة للمراقبة ، كان فرانكي يعتقد وعلى العكس مني ، ان الشرطة تعرف بان رجال العمل السري تسافر في القطارات ، لانه يعتقد بان المناطق الاكثر أمنا هي الاكثر عرضة للمراقبة ، وكذلك صحيح ان تاجرا ثريا ، ذا مصالح على درجة كبير في اوروبا ، على استعداد للسفر في القطارات الفخمة الاوروبية ،

ولكن ليس بواسطة تلك القطارات البائسة الخاصة بالمقاطعات التشيلية .

أقنعته بحجتي ان طائرة كونسبسيون لا تصلح ، لاننا لا نعرف اذا ما ستتمكن من الهبوط بسبب الضباب ام لا ، وامامنا مقابلة او جزء هام من خطة العمل .

في الحقيقة فضلت القطار على جميع الاحوال بسبب خوفي الذي لا علاج له من السفر في الطائرة . .

في الواحدة ليلا ، ركبنا القطار في (المحطة المركزية) ، المصممة من الفولاذ ، ولها نفس الجمال الاخاذ لبرج ايفل ، نزلنا في غرفة مريحة ، نظيفة في القاطرة المخصصة للنوم ، كانت معدتي خاوية من الجوع ، فالشيء الوحيد الذي تناولته منذ الافطار كان قطعتي شوكولاته بيعت لي اثناء العرض بينما كان الفتى موزارت يؤدي قفزات جمباز امام امبراطور النمسا ، اوضح لنا المفتش انه يمكننا فقط تناول الاكل في عربة الطعام .والتي لم تكن على اتصال مع قاطرتنا بسبب التصميم الاساسي ، المفتش نفسه اعطانا حلا : علينا الذهاب الى المطعم قبل ان يقلع القطار ، ان نأكل كما نرغب ، وان نعود الى غرفة النوم ساعة بعد ذلك خلال توقف القطار في رانكاغوا . وهذا ما قمنا به بكل سرعة ، حيث دق زامر منع التجول وراح المفتشون يحثوننا بصراخهم « هيا بسرعة ، يا رجال بسرعة اننا نهتك القانون » . لم يكن يهم حرس محطة رانكاغوا الناعسين فرائصهم ترتعد من البرد ، هتك ذلك القانون العسكري في شيء .

كانت محطة باردة تجمد الدم في العروق ، فارغة لا روح فيها تتلحفها ضبابة كشبح هائل ، اشبه بالمحطات في الافلام التي تصور المانيا النازية . فجأة وبينما كان المفتشون ينادوننا ، تقدمنا على طول الطريق فتى المطعم بسترته الكلاسيكية البيضاء ، يحمل في راحة يده

صحن ارز مع البيض المقلي ، ركض خمسين مترا تقريبا بسرعة فائقة دون ان يفقد الصحن نوازنه السحري ، وناوله من نافذة القاطرة الى احدهم والذي بدون شك دفع له من اجل ذلك ، وقبل ان نصل غرفتنا كان قد عاد الى المطعم. قطعنا حوالي الخمسمائة كيلومتر حتى وصلنا كونسبسيون في صمت مطلق ، كما لو ان حظر التجول كان اجباريا ليس على المسافرين في ذلك القطار الناعس وانما على جميع مخلوقات الطبيعة .

احيانا كنت اطل من النافذة ، ما كنت استطيع مشاهدته فقط خلال الضباب محطات فارغة واسلاكا شائكة على طوال السكة ، لا شيء خلف الاسلاك ، لا بشر ، لا ازهار ، لا حيوانات : لا شيء . تذكرت نيرودا « في كل الامكنة خبز ارز ، في تشيلي اسلاك ، اسلاك اسلاك » فيي السابعة صباحا ، وصلنا كونسبسيون وقد بقيت امامنا اراض عديدة محاطة بالاسلاك .

بينما كنا نقرر ما ستكون عليه خطوتنا القادمة ، فكرنا في مكان نحلق فيه ذقوننا ، بالنسبة لي لم تكن بمشكلة ، فقد استغللت ذلك وتركت الفرصة لذقني كي تنمو مرة اخرى . السيء في مظهرنا اننا نظهر في عيون رجال الشرطة كفارين من وجه العدالة ، في مدينة على بينه منها كل التشيليون حيث واكبت احداث وافعال هامة من النضال الاجتماعي . هنا ولدت الحركة الطلابية في الستينات ، هنا لقي سلفادور الليندي دعما كبيرا له في حملته الانتخابية ، هنا بدأ الرئيس غابرييل غونثالث فيديلا بحملته القمعية الدموية عام ١٩٦٤ ، قبل انشاء معسكر اعتقال بيساغوا بقليل ، حيث تدرب على فنون الارهاب والقتل فيها ضابط شاب يدعى اوغوستو بينوشيت .

زهور دائمة
في ساحة سيباستيان ، اسيفيدو

من نافذة التاكسي الذي اقلنا نحو مركز المدينة ، ومن خلال الضباب الصقيعي والكثيف ، شاهدنا الصليب الوحيد امام مدخل الكاتدرائية ، وباقات من الورود الدائمة التي تضعها ايد مجهولة . اشعل سيباستيان اسيفيدو ، عامل مناجم الفحم النشيط ، النار في نفسه في هذا المكان ، قبل عامين ، بعد ان حاول مرات وبدون نتيجة ، ان يقوم احدهم ويتدخل لدى دائرة المخابرات ويضع حدا لتعذيب ابنه ذي الاثنين والعشرين عاما وابنته ذات العشرين عاما ، والذين تحتجزهم السلطات تحت حجة حيازتهم غير الشرعية للسلاح . لم يستجد سيباستيان اسيفيدو وانما حذر . بينما كان المطران في رحلة ، تحدث مع مسؤولي الابرشية . وتحدث مع الصحفيين المهمين في البلاد ، ومع قادة الاحزاب السياسية ، ومع كبار رجال التجارة والصناعة ، تحدث مع كل من سمع له ، وبضمنهم مسؤولون في

الـدولـة ، للجميع قال نفس الشيء : « اذا لم تعملوا شيئا توقفوا فيه استمرارهم بتعذيب اولادي ، فسأصب البنزين على نفسي واشعل فيها النار امام الكنيسة » . البعض لم يصدقه ، آخرون وقفوا حيارى امام ما يفعلون ، وفي اليوم نفسه الذي حدده ، تمترس امام الكنيسة ، وصب على نفسه جالونا من البنزين وحذر الجميع الذي احتشد في الشارع بانه اذا ما قطع احدهم الاخط الاصفر فسوف يشعل النار . لم تجد نفعا تلك التـوسلات ، لم تنفع الاوامر ، وكل التحذيرات ، التي حاولت ايقافه عن تضحيته ، قطع شرطي الخط ، وتحول سيباستيان اسيفيدو الى السنة من النار البشرية . عاش سبع ساعات وبدون ان يتألم ، قانعا بما قام به ، رد الفعل الجماهيري كان كبيرا ، لدرجة ان الشرطة وجدت نفسها مرغمة على ان تسمح لابنته بان تزوره في المستشفى قبل الموت . وكي لا تراه ابنته في هذه الحالة الفظيعة سمحوا لها فقط بالحديث معه عبر (السماعة) .

وكيف اعرف انك كانديلاريا !!

قالت له عندها اسم التحبب الذي كان يناديها به وهي طفلة .

وكما طلب الاب الشهيد في حياتـه ، فقـد اخرج الاخوان من غرف التعذيب ، وسلما الى المحاكم المدنية . منذ ذلك الحين اطلق سكان كونسبسيون اسما سريا على مكان التضحية : ساحة سيباستيان اسفيديو .

ما اصعب ان تحلق في كونسبسيون

كنا نحفل بمخاطر نحن في غنى عنها ، وقد بدا وكأننا متنكران في زي برجـوازيين ولكن بدون حلاقـة ، في السابعة صباحا في هذه القلعة التاريخية ، ايضا فان الكل يعرف هذه الايام ان سيدا قائما على الدعاية ، مع مسجلة صغيرة لتسجيل افكاره ، يحمل في حقيبة يده الة حلاقة الكترونية تسمح له بالحلاقة في الطائرات وكذلك في القطارات وحتى في الباصات ، وقبل الوصول الى اي اجتماع عمل .

المشكلة الكبيرة في كونسبسيون ، كانت البحث عن حلاق ، يوم السبت وفي السابعة صباحا .

المحاولة الاولى مع صالون الحلاقة الوحيد الذي فتحت ابوابه في تلك الساعة قرب ساحة السلاح ، على الباب اعلان (للجنسين) . كانت هناك فتاة تكنس الصالون ، لا زال النعاس في عينيها ، وشاب في عمرها ، يرتب الزجاجات على الرف امامه .

قلت ـ اريد ان أتزين .

قال الرجل : لا ، لا نقوم بهذا العمل هنا .

ـ اين يقومون به .

قال تابع مسيرك الى الامام ـ هناك العديد من دكاكين الحلاقة . قطعت مفـرقـا ، حيث تركت فرانكي ليستـأجـر سيارة ، اصطدمت بشرطيين يسألانه عن الهوية ، طلباها مني ايضا ، لكن لم تحدث اية

مشكلة، على العكس من ذلك بينما كان فرانكي يستأجر السيارة ، رافقني احدهما وسار بي مفرقين حتى صالون للحلاقة كان يفتح ابوابه ، وودعني مصافحا يدي .

مثله مثل الصالون الاول ، على الباب اعلان : للجنسين ، في هذا الصالون كان رجل في الخامسة والثلاثين وفتاة اكثر شبابا .

سألني عما اريده .

قلت له ـ اتزين .

نظر كلاهما الي بدهشة .

قال ـ لا يا رجل ، لا نقوم بهذا العمل هنا .

قالت الفتاة : هنا للجنسين .

قلت لهم ـ حسنا ـ بما انه للجنسين فيمكن الحلاقة لواحد .

قال هو . لا يا رجل ـ عندنا لا .

ادار كلاهما لي ظهره ، فتابعت سيري خلال الشوارع غير المشمسة خلال الضباب الكثيف ، لم تدهشني كثرة صالونات الجنسين التي كانت في كونسبسيون فحسب ، ولكنني لم اجد احد يحلق لي ذقني . كنت شاردا في ذلك، عندما اقترب مني طفل في الشارع وسألني :

ـ يا سيد اتسير باحثا عن شيء .

قلت له ـ نعم ـ ابحث عن صالون حلاقة ، ان لا يكون للجنسين ، فقط للرجال ، مثل تلك التي كانت في السابق .

رافقني الى صالون حلاقة شعبي على الطراز القديم ، بابه مطلي بالاحمر والابيض ، فيه مقاعد دوارة كتلك التي كانت في ايامي . كان هناك مسنان يرتديان مرايل وسخة يقومون على حلاقة زبون واحد . احدهم يقص الشعر والاخر كان يزيل خصيلات الشعر الساقطة على وجهه واكتافه بفرشاه . في الداخل كانت تفوح رائحة زيوت الشعر

والكحول المعطر . اشبه بمحل العطار ، روائح زمن الطفولة ، تنبهت الى انني قلما تعاطيت مع هذه الروائح في الصالونات السابقة .

قلت ـ ايمكنك ان تزينني .

نظر الثلاثة باستغراب . سألني الرجل المسن والفرشاة في يده عما يدور في خلد الثلاثة .

ـ من اين حضرتك ؟

قلت بدون تفكير . تشيلي ، تداركت بسرعة : لكنني اوروغواني لم يتنبهوا الى ان تداركي كان اسوأ من خطأي ، نبهوني الى ان كلمة تزين لم تعد لتستخدم في تشيلي منذ عدة اعوام وانما حلاقة . ربما لم يفهم الحلاقون الشباب في صالونات الجنسين لهجتي التشيلية القديمة التي عفا عليها الزمن ، تحمسا لاستقبال ات من ايام عزهم . اجلسني الحلاق صاحب الفرشاة في مقعد ، وطوق رقبتي بالشرشف ، يبدو عليه ان قضاها تعيسا ، كان طويلا ، طري البشرة ، اشيب الرأس ، يبدو انه لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة ايام مثلي .

سألني : اتريد ان تحلق بماء ساخن ام بارد .

بالكاد كان يستطيع ان يقبض على الموسى في يده المرتعشة .

قلت له : بماء ساخن ، طبعا .

قال : اذاً يا للمصيبة ـ لانه ليس لدينا ماء ساخن هنا . فقط ماء بارد عندها عدت ادراجي حيث اول صالون صادفته وعندها قلت لهم انني اريد ان احلق ـ لاتزين . . استقبلوني في الحال ولكنهم اشترطوا علي حلاقة شعري ، سريعا ، وافقت ، جهز الشاب والفتاة نفسيهما وبدأوا يقومون بطقوس حرفتهم ، وضعت الفتاه المنشفة حول رقبتي ، وغلست رأسي بماء بارد ـ حيث في هذا الصالون لم يكن يوجد ماء ساخن ـ وطلبت مني ان اشير عليها بطريقة الحلاقة اهي رقم ثلاثة ام

اربعة ام خمسة ، او ان تتعاطى بطريقة تخفي بها الصلعة ، تابعت على نفس المنوال ثم توقفت فجأة وهي تنشف لي وجههي . وقالت تخاطب نفسها « يا للعجب » فتحت عينيي على اعلى ماقيها : ماذا ؟

كان ذهولها كبيرا .

قالت ـ حواجبك منتوفة .

تنغصت لاكتشافها ذلك ، قررت ان امازحها بصفاقة ، نظرتها برخاوة :

ـ الديك موقف من المخنثين ؟

احمرت خجلا ، ونفت بحركة من رأسها .

ثم أفرغ الحلاق وقته لي ، ورغما عن تحذيراتي وتوجيهاتي له . فقد قص شعري اكثر من اللازم ، وصففت شعري بطريقة اخرى . تركني وقد فرغ من خلاقتي لاعود مرة اخرى ميغيل ليتين . كان ذلك منطقيا ، فالمكياجي غيرو عن قصد اتجاه شعري الطبيعي . وهنا لم يقم حلاق كونسبسيون سوى باعادة وضعية شعري على ما كانت عليه في مكانها . لم يثر ذلك اهتمامي كثيرا ، فقد كان بامكاني اعادة تصفيف شعري بالطريقة الاخرى . وهذا ما عملته . دون ان يكلفني جهدا معنويا كبيرا ، صحيح انه ضد طموحي ، بان ارى نفسي، انا في مدينة ضبابية نائية ، والتي على جميع الاحوال لن يعرفني احد فيها ، فرغت من قص شعري ، قادتني الفتاة الى سدة خلف المحل ، فيها جميع التجهيزات ، كما لو كان ذلك محظورا ، قدمت لي ماكينة حلاقة وشغلتها امام المرآة ، دون الحاجة ولحسن الحظ للماء الساخن .

« جنة للحب في جهنم »

استأجر فرانكي سيارة ، وتناولنا الفطور في محل للمرطبات ، كان فنجانا باردا من القهوة ، حتى هناك لا يوجد ماء ساخن ، وتوجهنا الى مناجم فحم لوتاو شواجر ، عبر جسر بيو بيو الكبير على مجرى اكبر نهر في تشيلي ، والذي تصب فيه مياه معدنية ناعسة ، وبالكاد كنت اشاهدها من خلال الضباب . وصف الكاتب التشيلي بالدوميروليلو ، في القرن الماضي ، مناجم وحياة عمالها بكل تفاصيلها ، لا زال ما وصفه شاهدا على ما يجري حاليا . اشبه بالحياة في انكلترا ، منذ مائة عام . نفس منظر الضباب المشبع بدخان الفحم ، ونفس ظروف العمل قبيل الثورة الصناعية .

كانت هنالك ثلاثة مراكز مراقبة للبوليس قبل الوصول . اكثرها صعوبة ، وكما توقعنا اولها ، لذلك استنفذنا هناك كل عتادنا اللغوي فعندما استفسروا عموا سنفعله في لوتا وشواغر ، ذهلت من سيولة اجابتي . قلت اننا اتينا لمشاهدة الغابة ، وحيث انها من اكثر الغابات روعة في امريكا ، باشجار الاروكاريا الهرمة العملاقة وايضا لمشاهدة تماثيلها التي تحيطها الديكة الرومية والاوز دو الرقبة السوداء . وان هدفنا ان نستخدم المكان لالتقاط فيلم دعائي سيوزع في انحاء العالم يظهر عظمة الاروكاريا ، عن عطر جديد سيعمد بهذا الاسم تخليدا لذلك المكان الشاعري ، لا يوجد شرطي تشيلي يحتمل تفسيرات طويلة ،

وبالذات اذا ما كانت تتعلق بالحديث بشاعرية عن جمال البلد رحبوا بنـا ، وابلغوا الحاجز الثاني . لذلك فهناك لم يفتشوا عن هوياتنا وانما السيارة وحقائبنا ، اثارت اهتمامهم كاميرا سوبر ـ ٨ ـ علما بانها ليست للحرفة ، حيث ان التصوير حيث المناجم كان يستدعي الحصول على تصريح خطي وضحنا لهم اننا فقط نريد الوصول حتى غابة التماثيل والاوز ، في اعلى الجبل وتصنعت قولي بارستقراطية اشمئز منها :
لا تهمنا الفقراء .

فحص الشرطي بدون اهتـمام كل شيء كان يعثر عليه ، رد احدهم دون ان يتوجه بنظراته نحوي : في هذا المكان ، كلنا فقراء .

اكتفوا بالتفتيش وصلنا الغابة ، بعد ذلك بنصف ساعة ، بعد ان اجتزنا منعطفات ملتوية ضيقة صاعدة ، مررنا على الحاجز الثالث لم تعترضنا اية مشكلة ، مكان يطير فيه اللب ، اخاذ ، انشأ هناك تاجر النبيذ دون ماتياس كوسينيو ، للمرأة التي عشقها صرحا بديعا ، احضر شجارا فريدة من كل انحاء العالم من اجل اسعادها ، جلب حيوانات خرافية غريبة ، وتماثيل لالهة فائقه الجمال فيها اشكال الروح المختلفة ، السعادة ، الحزن ، الحنين ، الحب ، في داخل الغابة كان الصرح ، اشبه بما في حكايات الحوريات ، ذا شرفات تطل على المحيط الهادىء طرف العالم الآخر .

قضينا هناك الصباح باكمله نلتقط صورا بالسوبر ـ ٨ ـ للاماكن التي سيأتيها الفريق السينمائي للتصوير حالما يجهز التصريح ، ما ان بدأنا نلتقط صورا للمكان ، حتى اقترب منا حارس ليمنعنا من ذلك ، رددنا عليه حكـاية فيلم الدعاية للعالم ، اصر على اوامره لكنه عرض علينا مرافقته الى الاسفل ، حيث كانت المناجم هناك ونطلب تصريحا بذلك من المسؤولين .

قلت له : لن نصور اكثر من ذلك بعد الان ، واذا اردت ان تتأكد من صحة اقوالنا فلتبق معنا وتتأكد .

قبـل ذلك ، وعدنا لنطوف بارجاء الغابة معه ، كان في ريعان الشباب ذا وجه حزين . واصل فرانكي الحديث معه . حيث اثرت ان لا اتحـدث معه اكثر ، حتى لا اقع في الخطأ ، بلهجتي الاوروغوائية السيئة . اجتاح الحارس في لحظة ما الرغبة في التدخين . وناولناه كل سجائرنا . عندها تركنا لوحدنا ، واستمررنا في التصوير على هوانا . ليس في الاعلى حيث الغابة فحسب وانما في الاسفل حيث المناجم . وضعنا النقاط التي كانت تهمني كثيرا ، وزوايا العدسات ، المسافات ، كل حيز الغابة الكبير . ومن ثم البؤس في الاسفل ، حيث يعيش اولئك البؤساء من عمال المناجم والصيادين . انها الحقيقة كانوا اشبه بالدمى والتماثيل الحقيقية .

البار الذي يأوي طيور النورس

عنـدمـا هبطنا وقد انتصف النهار ، كانت القوارب التي تغامر يوميا ، تبحر في البحر المخيف حتى تشارف على مقربة من جزيرة سانتا ماريا ، في البحر ذي الامواج السوداء العالية ، وكانت تبحر عائلات باكملها محملة بمتاعها وحاجياتها وحيواناتها فيها . تدخل مناجم الفحم تحت البحر في انفاق عميقة ، حيث يعمل الاف العمال خلال اليوم في ظروف سيئة . حول مداخل الانفاق في الخارج كان ينبش مئات الرجال والنساء مع اطفالهم بايديهم الارض مثل القنفذ . باظفارهم يقتلعون فضلات الفحم من المناجم .

الهواء في الاعلى حيث الغابة ، كان نقيا وصافيا ، حيث اكسجين الاشجار ، اما في الاسفل كانوا يتنفسون الغبار الكربوني المنبعث في الضبـاب ، الـذي يؤذي التنفس ويلتصق بالمجـاري التنفسية . من الاعـلى يشـاهـد البحر برونقه الخرافي ، وفي الاسفل ضوضاء وجلبة كبيرة . تلك كانت معقلا سياسيا ، متحمسا لسلفادور الليندي ، عام ١٩٥٨ حدث هنـاك ماعرفت به منذ ذلك الاوان (مسيرة الفحم) ، عنـدما اجتاز عمال المناجم جسر بيو بيو في مظاهرة حاشدة متلاحمة ، قاتمة ، صامتة ، اكتسحت مدينة كونسبسيون رافعة اعلاما ويافطات ، مصرة على اسقاط الحكومة ، سجل المخرج التشيلي سيرجيو برافو فصول ذلك في فيلم (رايات الشعب) ، وهو احد روائع السينما الديمقراطية

التشيلية ، كان الليندي هناك ، وعندها تلقى التصميم الحقيقي للجماهير على مساندته . كانت اولى زياراته بعد ان اصبح رئيسا الى عمال المناجم حيث تحاور معهم في ساحة لوتا . كنت احد الذين عملوا معه . لفت انتباهي رجل مثله ، في الستين من عمره ، وبعنفوان الشباب ، قال من اعماقه يومها : « ولى الشباب ، انا اليوم عجوز » . تحادث معه عمال المناجم الصغيرو الاجسام ، والمهشمون ، المتوحدون ، يخدرونهم بالوعود التي لا تعرف الوفاء خلال سنوات عدة ، تداولوا الحديث معه دون تحفظات ، وانبروا للسعي حتى النهاية لانتصاره ، اولى قراراته التي اتخذها منذ تسلمه السلطة ، وكما وعد عمال لوتا وشواجر ، ذلك المساء كان تأميم المناجم ، وكان اول اعمال بينوشيت اعادة تمليكها من جديد ، كما عمل ايضا نفس الشيء مع المقابر ، القطارات المرافىء ، وحتى اشغال جمع النفايات .

انتهت خطة التصوير في المناجم في الرابعة مساء ، بدون ان تصدنا عن ذلك اية قسوة عسكرية او مدنية ، عدنا الى كونسبسيون عن طريق تالكا هوانو ، كان من الصعب الاسراع في السيارة ، نظرا للاعداد الضخمة من عمال المناجم يخترقون الضباب عائدين الى اكواخهم ، يجرون عربات يد فيها قطع من الفحم الذي جمعوه من فضلات المناجم رجال اقزام كالاشباح ، نساء نحيفات ، لكن يتمتعن بقوة الاجسام يحملن اكياسا كبيرة من الفحم ، مخلوقات تظهر فجأة في غياهب الظلمات كاحلام مفزعة ، وبالكاد كانت تكتشفها اضواء السيارات .

في تالكا هوانوا ، يقع مقر كلية ضباط الصف البحرية ، حيث الميناء العسكري الرئيسي في تشيلي والقاعدة الاكثر أهمية ، اشتهرت في الايام الاولى التي تلت الانقلاب العسكري كونها نقطة التجميع

الاجبارية للسجناء السياسيين الذين كانوا ينقلون الى جهنم جزيرة داو سون .

تعج الشوارع بعمال المناجم بالبستها البالية المتسخة ، ويشاهد المكلفون العسكريون يقومون بالاستعراض بالزي البحري ، وليس من السهل استنشاق قطرات الهواء الملوث بالرائحة المؤذية التي لا تطاق والمنبعثة من مطاحن الاسماك ، وقطران القواعد، قاذورات البحر . وعلى عكس ما افترضناه ، لم يعترضنا اي حاجز عسكري . غالبية المنازل كانت مظلمة ، اضواء خافتة كانت تتناءى الينا من بعض النوافذ ، كانت تبدو كقناديل من العهود الماضية .

لم نكن قد تناولنا شيئا بعد القهوة المثلجة صباحا . وهكذا دلفنا مطعما دون ان نخطط له ، يشع منه ضوء ، اشبه بالاساطير عندما اكتشفنا انه يعج بالنوارس التي كانت تدلفه من شرفاته المطلة على البحر ، لم اشاهدها ابدا بهذه الكثرة ، ولا حتى كيف تندفع من الظلمة لتحوم فوق رؤوس الزبائن الموتورين ، تطير كما لو كانت عمياء ، او بلهاء ، ترتطم في كل الارجاء ، وتثير ضجة اشبه بضجة مركب وصل المرفأ ، افطرنا وقت العشاء ، على الصدف البحري التشيلي ، والذي يعيش في مياه البحر المحاذية لليابسة في الاعماق الباردة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ثم عدنا الى كونسبسيون .

استطعنا ان ندرك القطار الى سنتياغو . وقد بدأت تدور عجلاته ، حيث اننا وجدنا المكتب الذي استأجرنا فيه السيارة مغلقا ، واضطررنا ان نهدر اربع ساعات في البحث عن شخص يسلم السيارة للمكتب .

الفصل السادس

الليندى و نيرودا :
«خالدان فى الذاكرة لا يموتان أبدا»

الاحياء السكنية الفقيرة الضخمة في المدن التشيلية الكبيرة ، عبارة عن اراض مشاعية دون ملاك ـ اشبه بالقصبة في المدن العربية ـ ، يمكن تمييز ساكنيها ببشرتهم المحروقة السمراء ، وقد غير البؤس من لونهم . نمت في اوساطهم ثقافة الازقة ، تراجع الشرطة والجيش الكثير من حساباتهم عند المغامرة بدخول تلك الازقة ، ففي هذه الاحياء المتراصة الفقيرة كخلية نحل ، يمكن اخفاء فيل فيها دون ان يترك اثرا ، وكذلك حيث يجب ان يتهيأوا لمواجهة وسائل المقاومة غير المتوقعة في الرد على اجهزة القمع .

دوما كانت هذه الاحياء وعبر التاريخ تلعب دورا انتخابيا هاما وفعالا خلال المراحل الديمقراطية ، وكنت تؤرق الحكومات ، كان مهما بالنسبة لنا اخذ صورة حقيقية توضح النفسية والوضع الجماهيري وعلاقته مع الدكتاتورية . والى اي مدى لا زالت حية في الذاكرة صورة سالفادور الليندي .

المفـاجـأة الاولى كانت التـأكـد من ان الاسـماء الشهيرة للقادة في المنفى ، شخصيات المجد السابق والتي ليس لها علاقة كبيرة بما يجري حاليا ، لم تكن لتجـول كثـيرا في خاطـر الجيل الجـديد الـذي يرهق الدكتاتورية اليوم بمواجهاته العنيفة .

رغما عن ان ذلك قد يبدو متناقضا ، ولكن ذلك في حقيقة الامر يعني الفشل الاكبر للنظام العسكري . فما ان تسلم الجنرال بينوشيت الحكم ، حتى أعلن عزمه على البقاء في الحكم حتى يجتث من ذاكرة الاجيال اللاحقة اخر صوره للنظام الديمقراطي . ساعتها لم يتصور ان نفس نظامه سيصبح ضحية لعزمه هذا .

قبـل فترة قليلة ، وقد فقد قدرته على السيطرة على خطر الفتية الـذين يهاجمـون قوات القمـع بالحجارة في الشوارع ، وكذلك الذين يقـاتلون بالسلاح سرا ، يناضلون لاجل اقامة نظام سياسي لا يعرفه الكثيرون مهم . صرح الجنرال بينوشيت من اعماقه بان تفعل الشبيبة ما شاءت ، لانها لا تعرف شيئا عما كانت تعنيه الديمقراطية في تشيلي .

يمتلك اسم سالفـادور ألليندي الماضي ، ولا زال صدى ذكراه يتكـرر وبشكـل خرافي في الاحياء الشعبية ، وهـذا ليس من الاهمية بمكـان ، امـام الـظروف التي يعيشـونها ، ونضج وعيهم في مواجهة الـدكتـاتورية ، تصوراتهم ووسائلهم في النضال ، فاجأونا باجاباتهم وصراحتهم ، ولكن الليندي كان دوما في الذاكرة . شهود وفي امكنة عدة بدوا وكـأنهم شخص واحد : « دائما في الاقتراعات صوت له ، ليس لشخص اخر أبدا » ، وهذا يفسر لماذا كان الليندي مرشحا ولمرات عدة اثناء حياته وقبل ان يفوز بالرئاسة ، من المناسب قوله ، انه يجب ان يكتب على شاهد قبره : « هنا يرقد سالفادور الليني ، الرئيس القادم لتشيلي » . رشح اربع مرات حتى انتخب ، قبل ذلك كان نائبا وعضوا

في مجلس الشيوخ ، طوال الانتخابات المتلاحقة وايضا اثناء حقيبته البرلمانية ، التي لم تتوقف ، كان المرشح المفضل لغالبية الولايات في طول البلاد وعرضها . من حدود البيرو وحتى باتاغونيا كان يعرف بعمق ، مؤيديه ، ثقافاتهم المختلفة ، الامهم ، احلامهم ، كما وعرفته الجماهير أيضا وعن كثب بعظمه ولحمه ، على عكس الكثير من الساسة الذين كانوا يشاهدون فقط في الصحافة او التلفزيون ، او يسمعون عبر الراديو ، دخلت سياسة الليندي البيوت ، وتنقلت من بيت الى بيت . كانت على اتصال مباشر ، دافىء ودائم مع الناس ، كما لو كان : طبيب العائلة .

كان مثابراً في عمله السياسي ، يفهم روح البشر ، كان ديمقراطيا لدرجة . ووصلته به الامور درجة عسيرة بات من الصعب حلها . بعد ان انتخب رئيسا سار رجل امامه في مظاهرة يحمل يافطة فريدة (هذه الحكومة من الخرى ، لكنها حكومتي) . نهض الليندي ، وصفق ثم هبط ليشد على يده . اثناء تجوالنا الطويل في ارجاء البلد ، لم نجد مكانا لا يوجد فيه اثر له . دوما كان هنالك شخص شد على يده ، او اصبح عرابا لابنه ، او عالج احدهم من سعلة خبيثة ، باعشاب من باحة منزله ، او حصل له عملا ، او هزمه في لعبة الشطرنج .

كل شيء لمسه تحول الى اثر قيم . ما كنا لا نتوقعه ، ان اشاروا الى كرسي حافظوا عليه اكثر من الكراسي الاخرى : « هنا جلس مرة ، او اظهروا لنا شيئا « اهداه لنا » ، قالت لنا فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ، لديها طفل وكانت حاملا للمرة الثانية - « اعلم ابني دائما من كان الرئيس ، رغما عن انني بالكاد عرفته ، لانني كنت في التاسعة عندما رحل » . سألناها عن ذكرياتها التي تحتفظها عنه ، فقالت « كنت مع ابي ، شاهدته يتحدث من شرفه ويلوح بمنديل ابيض » . في بيت

علقت فيه صوره عذراء الكارمن ، سألنا صاحبته ، اذا ما كانت من انصاره ، فاجأتنا : « لم اكن كذلك ، اما الان فنعم » . عندها رفعت صورة العـذراء ، لتكشف لنـا خلفهـا ، عن لوحـة لاليندي . كانوا يبيعـون خلال فترة رئـاسته في الاسواق الشعبية ، صورا له نصفيه ، يهتمون الان بها كثيرا في الاحياء السكنية ، حيث يزينونها باواني الزهور والشمـوع ، يتردد صدى ذكـراه ، عند المسنين الذين صوتوا له اربع مرات ، وعنـد الذين صوتوا له ثلاثا ، وعند اولئك الذين انتخبوه ، وعند الاطفال الذين يعرفونه عبر الذاكره . العديد من النساء اللواتي حادثنه يكررن نفس العبارة : « الرئيس الوحيد الذي تحدث عن حقوق المـرأة ، كان سالفـادور الليندي » . بالكاد كانوا يذكرون اسمه وانما « الـرئيس » . كما لو كان ولا زال الـرئيس الاوحد ، وكأنما ينتظرون عودتـه ، في المنـاطق الفقيرة لم تعلق في الذاكرة صورته ، وانما عظمة تفكيره الانساني . كانوا يقولون : « لا يهمنا البيت ولا الطعام ، وانما ان يعيدوا الينا الكرامة » . ويردون « ما انتزعوه منا : حرية الصوت والتصويت » .

« الليندي ونيرودا* خالدان لا يموتان ابدا »

اكثر ما تستشف شعبية الليندي في بالبارائيسو ، ذلك الميناء الصخب ، حيث ولد ، وترعرع ، وتهيأ للحياة السياسية ، في بيت لاسكافي فوضوي ، حيث قرأ اوائل الكتب النظرية ، وتعلق بشغف بلعبة الشطرنج . كان جده ، رامون الليندي ، مؤسس اول مدرسة مذهبية في التشيلي ، ولاول رابطة ماسونية ، والتي حصل فيها سالفادور الليندي على درجة سامية هي المعلم الاكبر . كانت اولى نشاطاته ضمن « الايام الاشتراكية الاثنا عشر » ، لمارمادوكي جروبي ، والذي تزوج اخاه شقيقة الليندي . من الغريب ان الدكتاتورية دفنت الليندي في بالبارائيسو ، وهذا بدون شك ما كان يريده على جميع الاحوال ، نقلوه بدون اعلان او طقوس ليلة ١١ ايلول عام ١٩٧٣ ، في طائرة مروحية قديمة مهترئة تنفذ الى داخلها الرياح الثلجية الجنوبية ، بمرافقة زوجته هورتسينا بوسي ، واخته لاورا فقط . صرح احد رجالات جهاز المخابرات التابع للطغمة العسكرية القدامى ، والذي اقتحم مع طلائع المقتحمين قصر المونيدا ، بقوله للصحفي الامريكي توماس هاوسر ، انه شاهد جثة الرئيس « ورأسه مهشم وقد تناثرت بقايا دماغه على الارض والجدران » . ربما ولهذا السبب رفض العسكريون طلب

* انتخب عام ١٩٧٠ واغتيل في ايلول ١٩٧٣

* بابلو نيرودا : الشاعر التشيلي د الذي حاز على جائزة نوبل للاداب ، ولد في ١٤ تموز ١٩٠٤ ، وانتسب للحزب الشيوعي التشيلي في ١٥ تموز ١٩٤٥ وتوفي عام ١٩٧٣ .

عقيلة الليندي ان يكشفوا الغطاء عن وجهه كي تلقي على وجهه النظرة الاخيرة في التابوت ، فقط ما استطاعت رؤيته كانت هيئته ، مغطاة بشرشف .

دفنوه في مقبرة سانتا اينيس ، في الضريح العائلي الخاص بهارمادوكي جروبي ، وبدون اية قرابين سوى باقة ورد وضعتها زوجته ، كتب عليها « هنا يرقد سالفادور الليندي رئيس تشيلي » . اعتقدوا انهم بهذه الوسيلة يستطيعون كبح جماح التقدير الشعبي له ، ولكن ذلك كان مستحيلا ، قبره الان مكان دائم لحجيج الناس اليه ، دائما هناك باقات من الزهور وضعتها ايد مجهولة .

حاولت الحكومة ان تمنع ذلك ، وروجت الشائعات بان الجثة قد نقلت الى مكان اخر ، ولكن الزهور لا زالت غضة على قبره .

المقام الاخر الذي يحتشد الناس اليه ولا زال حيا في ذاكرة الاجيال الجديدة لبابلونيرودا ، حيث مأواه البحري في ايسلانفرا . هذا المكان القديم ليس بجزيرة ولا سوداء ، رغما عن انه يشار اليه بهذا الاسم ، انما مكان يأهل بالصيادين يقع الى الجنوب من بالبارائيسو بحوالي اربعين كيلومترا ، على الطريق الاسفلتي لسان انطونيو ، حيث اشجار الصنوبر العملاقة في التراب الرملي الاصفر ، والبحر الاخضر المتلاطم الامواج . هناك كان مأوى بابلونيرودا ، وهو مقام لحجيج المحبين من ارجاء العالم . تقدمنا انا وفرانكي الفريق ، وذهبنا الى هناك لوضع خطة التصوير ، بينما كان الفريق الايطالي يقوم باخذ اخر اللقطات من ميناء بالبارائيسو ، اشار شرطي الحراسة الينا اين يوجد الجسر ، حيث المأوى ، كان هناك ايضا العديد من الاماكن التي خلدها الشاعر بابياته ، لكنه حذرني من زيارة المأوى ، لان ذلك ممنوع .

قال ـ يمكنك مشاهدته من الخارج . اثناء انتظارنا للفريق قرب

المأوى ، فهمنا الى اية درجة اصبح فيها الشاعر روح جزيرة ايسلانغرا . عندما كان يقضي اوقاته هناك ، تتجمهر فتية من جميع انحاء العالم حول المكان ، يحملون دليلا سياحيا وحيدا لهم ، هو عشرون قصيدة حب* .

لا يريدون شيئا ، سوى رؤيته لبرهة ، وفي احسن الاحوال ان يمهر لهم توقيعه ، كان ذلك يروي ظمأهم بذكرى ذلك المكان . كان المأوى مكانا مشرقا ، يعج بالثرثرة ، حيث كان يظهر نيرودا بعباءاته الشعبية الملونة وقبعاته الهندية الحمراء ، كان هائلا ويسير بطيئا مثل البابا . كان يذهب للحديث بالهاتف ـ حيث عطل تلفونه باعثا في ذلك مزيدا من الهدوء ـ او وضعه عند السيدة ايلينا ، صاحبة المأوى ، عندما يستضيف اصدقاء له على العشاء في المأوى ، فانه يقوم بكل ما يخص تجهيز وتقديم العشاء ، وكما لو كان مطبخ المأوى على مستوى رفيع ، فقد كان نيرودا مختصا الى درجة الاحتراف ، كان ذا حساسية مرهفة تجاه الاكل اللذيذ ، تهمه دقائق ذلك ، والتي قد لا ترعى انتباه الكثيرين ، فعندما يفرش الطاولة ، كان على استعداد لتغيير الشراشف ، والمناشف ، وادوات الاكل ، مرات عدة ، اذا ما استدعته الضرورة ، وبحيث تتطابق مع صنف الطعام الذي سيقدمونه .

بعد اثني عشر عاما على موته ، بدا وكأنما جرفت رياح الوحدة كل شيء ، فقد ذهبت السيدة ايلينا الى سانتياغوا مثقلة بالاسى على فقدانه ، في وقت كان المسكن على وشكن الانهيار .

لكن حتى هذه اللحظة لا زالت اثار الشاعر العظيم ، رغما عن اخر هزة ارضية ضربت ايسلانغرا ، حيث انها تتعرض وبدون انقطاع لهزات ارضية كل عشر ، او خمس عشرة دقيقة في كل الايام بلياليها .

* عشرون قصيدة حب والاغنية اليائسة : اجمل ما كتب نيرودا من قصائد في الحب ، ونشرت عام ١٩٢٤ لاول مرة .

« الارض ترتجف دوما في ايسلانغرا »

وجدنا مأوى نيرودا مسيجا بخشب الصنوبر ، يحيطه من زواياه الاربع ، وعلى ارتفاع متر تقريبا ، انشأه الشاعر ليسيج به حول حياته الخاصة ونمت الان ازهار بين الخشب .

كانت هنـاك لائحـة تحذر من دخـول المـأوى المختوم بالشمع الاحمر ، او التقاط الصور له . كان الشرطي الذي يدور هناك بين الفينة والفينة ، اكثر صراحة في كلامه « هنا كل شيء ممنوع » . كما اتفقنا قبل الـوصـول ، حمل المصور الايطالي معه جهازا كبيرا للتصوير ، ظاهرا للعيان كي يحتجزه حاجز الشرطة ، وخبأ جهازا اخر يدويا ، وايضا ، فقد توزع الفريق في ثلاث سيارات ، بحيث نتمكن من نقل بكرات الافلام الى سانتياغوا وبحيث لا نفقد المواد المصورة التي معنا حاليا ، اذا ما فوجئنا اثناء عملية التصوير . واذا ما فوجئنا عليهم الا يتعرفوا علي ، فما انا وفرانكي سوى سائحين بريئين .

كانت الابواب مغلقة من الداخل ، وقد اسدلت ستائر بيضاء على الشبابيك ، لم يكن العلم مرفوعا على الصاري عند المدخل ، حيث كان يرفع ليشير بان الشاعر في المنزل .

كان رونق الحديقة يلفت النظر في ذلك الوسط المثير للحزن ، حيث كانت ايد مجهولة تهتم بها .

حملت ماتيلدا ، زوجـة نيرودا والتي ماتت قبيل زيارتنا ، متاع

المنزل بعد الانقلاب العسكري ، وكتبه ، وكل ما جمعه الشاعر طيلة حياته العظيمة من تحف وغيره .

من العسير تفسير حاجياته ، ولكنها تحمل في كنفها العديد من الدلائل ، ما كان يميز داره ، ما احتوته اذ انه تنقل في العديد من مناطق العالم . كان محموما لنشب مخالبه في الطبيعة ، ليس في ابياته الرائدة فقط ، وانما قادته احاسيه المرهفة الى ان يجمع العديد من انواع الحلزون ، والتماثيل المجسمة المثبتة في مقدمة القوارب ، وفراشات الفزع ، وكؤوسا مثيرة . في احد بيوته ، شاهد احدهم فجأة حصانا محنطا بدا وكأنه حصان حي في وسط المكتب . ايضا من بين تولهاته الخلاقة بعد قصائده ، والاقل تمجيدا ، كان شغفه اللا محدود بالفن المعماري لبيوته ، في احدها ، من اجل المرور من الصالة الى غرف النوم ، كان يجب ان تقوم بالسير في فناء الدار ، وكانت عنده مظلات واقية للمطر . حتى يستطيع زائروه تناول الطعام دون ان يبتلوا في اوقات المطر . لا احد كان يتمتع او يضحك اكثر منه ، من قضاياه الخاصة هذه التي يبدو وكأن لا معنى لها ، كان اصدقاؤه الفنزويليون ، والذين يربطون الذوق السيء بالحظ السيء ، يقولون عن مجموعاته بانها مرعبة وغير شاعرية .

كان يجيبهم ، وهو يقهقه من الضحك بان الشعر هو الاكسير لكل رقي البشر ، وقد اثبت ذلك حتى التخمة بمجموعاته المرعبة .

كانت اقامته الرئيسية في شارع ماركيز دي لابلاتا ، في سانتياغو ، حيث مات من جراء سرطان الدم سريعا بسبب الحزن ، بعد الانقلاب العسكري بايام قليلة ، ونهبت قوى الامن داره واضرمت النار بكتبه في الحديقة .

اشترى نيرودا بالنقود التي حصل عليها نظير جائزة نوبل ، وكونه

سفيرا لحكومة الوحدة الشعبية في باريس ، اسطبلا قديما لقلعة في نورمانديا ورممه كي يعيش حيث الزهور على ضفاف بركة . كان سقفه عاليا اشبه بقبو كنيسة ، ذا زجاج ملون به اضواء ترسم على الشاعر الوانا باهرة ، كان يجلس في السرير اثناء استقباله لاصدقائه ، بملبسه ، وبهول كاهن رفيع المستوى ، والتأثير ، لكنه لم يتمتع بحياته فيه اكثر من عام .

حتى الان تتوافد اجيال العاشقين على منزل (ايسلانغرا) والذي يعتبره قراءه افضل صورة لشعره ، اولئك الذين كان لديهم من العمر ثماني سنوات ، عندما كان الشاعر على قيد الحياة ، يأتون اليوم من كل انحاء العالم ليرسموا قلوبا ورسائل عشق جوار المدخل المحظور دخوله . ورسوم وكتابات مختلفة ولكنها لنفس الموضوع ، خوان وروسا يعشقون بعضهم عبر بابلو ، شكرا بابلو لانك علمتنا الحب ، نريد ان نعشق كثيرا مثلك . وهناك ايضا عبارات لم تصل اليها اعين الشرطة كي تمسحها ، ايتها الجنرالات ، الحب لا يموت ابدا ، الليندي ونيرودا احياء ، دقيقة من الظلام لن تعمينا . وايضا هناك عبارات شبيهة في امكنة لا تثير الانتباه في السور الخشبي ، العديد من الاجيال المتلاحقة حفرت ونقشت عبارات فوق بعضها لقلة الحيز . يمكن لاحدهم ان يعيد كتابة قصائد كاملة لنيرودا ، اذا كان لديه جلد ، بعد ان ينظم الابيات المتبعثرة والتي كتبها العشاق للذكرى على السور الخشبي المحيط بالدار . اكثر ما كان يثير فينا الدهشة ، ان تلك الكتابات كانت تتدفق بالحياة مع الهزات العميقة في باطن الارض ، والتي كانت تحدث كل عشر او خمس عشرة دقيقة . . وكأنما كان يهم السور الخشبي الخروج من الارض ، تصرصر الاخشاب في مناطق وصلها ، كانت تسمع اصوات قرقعة كؤوس ومعادن ، كقارب تتقاذفه الامواج ، وكان العالم كله

يرتجف لذلك الحب الكبير المزروع في المنزل .

كانت كل احتياطاتنا عقيمة ، فلا احد استولى على الكاميرات او منعنا من المرور ، حيث ولت الشرطة لتناول طعام الغداء . التقطنا ما اردنـا من الصور ، ليس ما كان مقررا له فقط وانما اكثر من ذلك بكثير ، كان اوغو وقد اثملته الاهتزازات داخل البحر ، حيث غاص حتى حزامه في الامواج التي كانت تنفجر على الصخور محدثة رعد ما قبل التاريخ . كان يخاطر بحياته ، ولم يكن بالامكان ترويضه ، ولا كان احد بقادر على منعه ، حيث كانت الهزات الارضية تجره الى اعماق البحر .

صور اوغـو بدون توقف ، وكـما شاء ، كان محمـومـا امـام مـ يشاهده ، وكل محترفي السينما تعرف جيدا ، انه من المستحيل التحكم او قيادة مصور في اللحظات الحاسمة .

« صعدت غراسيا الى السماء »

كل بكرة كنا نفرغ منها ، كانت ترسل بسرعة الى سانتياغوا ، كما كان محددا ، حيث ستنقلها غراسيا الى ايطاليا في الليلة نفسها ، لم يؤقت رحيلها بمحض الصدفة ، فمنذ اسبوع كنا ندرس الوسيلة الاضمن لاخراج كل المواد المصورة حتى ذلك الحين ، حيث اننا عكفنا عن الطرق السرية لنقلها كما اتفق في الخطة الاساسية . كنا في هذا الموضوع ، عندما انتشر خبر مفاده ، وصول الكاردينال الجديد لتشيلي مونسنيور فرانسيسكو فرزنو ، ليحل محل الكاردينال سلفاهنريكث ، والذي تقاعد نظرا لاتمامه خمسة وسبعين عاما ، هذا الاخير ، ترك خلفه اثرا كبيرا في نفوس الجماهير ، فقد اعطى الامال في تعاضد الكنيسة مع الجماهير ، وغرس في الكنيسة ضميرا نضاليا كان يقض مضاجع الدكتاتورية .

خلال فترته ، كان هناك العديد من القساوسة ، تعمل في المناطق الاهلة مع السكان يدا بيد ، كنجارين ، وبناءين ، وبائعين يكسبون بقوة عملهم بحق ، والبعض منهم قتلته الشرطة في المظاهرات في الشوارع ، لم يكن شعورهم تجاهه ، مثل الشعور تجاه الكاردنيال الجديد الذي يصعب تفسير توجهاته وافكاره السياسية .

رفعت الحكومة كافة العراقيل الناجمة عن حظر التجول ، واعلنت عبر وسائلها الرسمية الترحيب الحافل والمهيب بالمونسنيور فرزنو . ولكن في الوقت نفسه ، صادف ذلك سفر الجنرال بينوشيت في رحلة الى شمال البلاد وتستغرق اسبوعين ، يرافقه فيها عائلته وكل المقربين اليه في بلاطه من الوزراء الشبان غير المعروفين ، بدون شك ، كي لا يرى نفسه او ايا من المقربين اليه مجبرا على المشاركة في الاستقبال المفروض . كانت المدينة في تيه بسبب التوجهات الرسمية المتناقضة ، حضر الاستقبال في ساحة دي لاس ارماس الفا شخص ، وهذا ما تتسعه ، وكان في الانتظار ستة الاف شخص على الاقل .

في ظل الارتباك الرسمي ، واتتنا فرصتنا المناسبة ذلك المساء لاجل اخراج اول شحنة من البكرات الجاهزة من البلاد .

في الليلة نفسها ، وصلني الى بالبارائيسو رسالة مشفرة : غراسيا صعدت الى السماء . كان هذا ما حدث : وصلت غراسيا الى المطار مع العدة المغلفة والمربطة بشكل متين ، حتى ان الشرطة ساعدتها في تسجيل امتعتها ونقل الحقائب دون ادنى عرقلة ، وسافرت في نفس الطائرة التي بالكاد هبط منها الكردينال .

الفصل السابع

الشرطة فى تعقب :
دائرة الحصار بدأت تضيق

قضت ايلينا نهاية الأسبوع عكرة المزاج، بينما كنت أتابع التصوير في كونسبسيون وبـالبـارائيسو، حيث لم أخابرها. واجبها في مثل هذه الأحوال أن تبلغ عن اختفائي، ولكنها اعطت مهلة اكبر مما هو مقرر، حيث انها تعرف أنني متلهف على اقتراف المعاصي. انتظرتني طوال ليلة السبت. في يوم الأحد. وقد بدا لها أنني لن آتي، اتصلت، بمن يمكن أن تكون لديه أخبار عني، ولكن دون جدوى. حددت مهلة اخيرة، اقصاها الثانية عشرة ظهراً من يوم الاثنين. كي تنبه عن اختفائي، كنت قد انهيت العديدَ من المهام الخطرة والملحة جداً، عندما رأتنني أدخل الفندق، بوجه غير حليق لم يذق طعم النوم، اقسمت لي بانها لم تعانِ في حياتها ماعانته مع زوج زائف غير مطيع مثلي. كان لديها في هذه المرة

سبب آخـر، محقه فيه. حددت لي في النهـاية وبعـد أن فشلت عدة محاولات للقـاء، رغـماً عن الحـرص الشـديد الذي لايوصف، وبعد تخطيطات ملمترية، مقابلة سرية في الحادية عشرة صباحاً في نفس اليوم مع زعماء الجبهة الوطنية مانويل رودريغيث، كانت تلك المهمة، اكثر فصـول الـبرنـامج أهمية وصعوبة تتشكل الجبهة الوطنية (مانويل رود ريغيث) في معظمها ان لم تكن كلها، من الجيل الذي للتو تخرج من المدرسة الابتدائية.

عندما قام بينوشيت بالاستيلاء على الحكم، نودي الى وحدة قوى المعارضة، من أجل اسقاط الدكتاتورية واعادة الديمقراطية التي تؤهل الشعب التشيلي في تقرير مصيره بنفسه، اسم الجبهة نسبة الى مانويل رود ريغيث، والذي يرمز الى الاستقلال التشيلي عام ١٨١٠، حيث كان لدى هذا الشخص قدرات خارقـة لتسخير واختراق كل الحواجز وسـواء القيود الخـارجية أم الداخلية منها، وكان على اتصال دائم مع جيش التحـرير المتـواجد في مندوزا في الجانب الارجنتيني، ومع قوى المقـاومة التي تعمل في السر داخل تشيلي، بعد ان اندحر الوطنيون، وثبت الحكـام الفعليون سلطتهم آنـذاك، طرأ وضع شبيه كل الشبه بالوضع الحالي في تشيلي.

يحلم أي صحفي كبير بالفرصة لمقابلة وحوار قادة الجبهة الوطنية. لم استطع أن استثني نفسي من ذلك. تمكنت من الوصول في آخر لحظة، وبعـد أن وزعت طاقم الفـريق على الأمـاكن المختلفة المتفق عليها. وصلت الى موقف الباصات في شارع بروفيدنثا، معي الاشارة المتفق عليها والتي تعرفهم علي، عدد من مجلة كي باسبا(*) والمركوريو(**) لذلك اليوم وكان ذلك يتطلب مني فقط ان انتظر شخصا هناك يقترب مني ويسألني:

(*) ماذا يجري

(* *) المركوريو: عطارد، اله التجارة، مجلة المركوريو مجلة تعنى بالشؤون الاقتصادية.

ـ حضرتك ذاهب الى البلاج؟ كان عليَّ الاجابة بـ كلا أنا ذاهب الى حديقة الحيوان. بدت لي كلمة السر عقيمة، فلا أحد يفكر بالذهاب الى البلاج في الخريف، لكنَّ الشخصين المكلفين بالاتصال بي فسرا لي ذلك لاحقاً، لماذا كانا محقين في ان يكون ذلك عقيمًا. لانه لايوجد اي احتمال هنا للخطأ أو الوقوع تحت رحمة الصدفة. بعد عشر دقائق، شعرت اثناءها بأن وجودي أصبح في ذلك المكان مثيراً للشبهة وبشكل كبير، حيث كان يعج بالحركة. شاهدت شاباً يدنو مني، ذا قامة متوسطة ونحيفاً جداً، كان يعرج على رجله اليسرى، يضع قبعة كانت كافية لي أن احدد هويته، أنه من الجماعة توجه صوبي دون تحفظات، قطعت عليه قبل أن يبدأ بالاشارات السرية. قلت له وأنا أضحك ـ الا يمكنك أن تتخفى بطريقة أخرى، فطريقتك مكشوفة، فحتى انا نفسي عرفتك منها.

كانت اكثر من مفاجأة بالنسبة له، رمقني بأسى قائلاً:

ـ ايلاحظ ذلك كثيراً؟؟

قلت عن بعد فرسخ

كان شاباً رقيقاً، لايعير اهتماماً لوضعه السري، وهذا ماأثلج صدري منذ الاتصال الأول. اقتربت شاحنة نقل سريعاً بينما كان يقف الى جواري، كتب عليها ـ مخابز ـ توقفت امامي، وجلست جوار السائق. ثم قامت السيارة بعدة دورات ومناورات وسط المدينة، وتوجهنا الى حيث الفريق الايطالي في مناطقه المختلفة. لاحقاً شتتونا وتركونا في خمسة اماكن مختلفة، ثم عادوا ووزعونا على السيارات. وفي النهاية عادوا ليجمعونا في شاحنة جيش كانت فيها، الكاميرات، والاضواء، وجهاز الصوت.

كان لدي الانطباع بأنني لاأعيش مغامرة حقيقية وخطره على

الحياة، وانما امثل فيلمًا للجواسيس. اختفى عنصر الاتصال ذو القبعة، والوجه المميز لاعضاء المقاومة، في احدى تلك الجولات العدة، ولم اشاهده بعدها. في مكانه ظهر سائق ذو نكته، لكنه كان شديد العزم، جلست جواره. وجلس الفريق في المكان المخصص للشحن خلفنا. قال لنا ـ سوف آخذكم في مشوار، لتستنشقوا هواء البحر التشيلي.

فتح الراديو على اعلى درجة، وبدأ يدور بنا في المدينة، حتى انا لم اكن على بينة اين نحن، لم يكتف بذلك، بل امرنا أن نغلق عيوننا قال بلهجة تشيلية كنت قد نسيتها:

ـ «حسنا ايها الصبيه، والان سوف نلعب الطماية(*) لما بدا له اننا لم نعره اهتماماً، نهرنا وبشكل مباشر.

ـ هيا الآن وبسرعة، اغلقوا اعينكم، ولاتفتحوها إلا حين آمركم، لان الحكاية سوف تبدأ الآن.

حدثنا بانه كان لديهم لاجل هذه المهام، موديل خاص من النظارات، عبارة عن نظارات شمسية لاتدع العيون ترى من خلالها. لكنه نسي ان يحضرها في هذه المرة فقط. لم يفهم الايطاليون في الخلف لهجته التشيلية، وكان عليَّ أن أترجم لهم، فقلت:

ـ ناموا.

عندها بدا وكأنهم لم يفهموا شيئاً.

ـ النوم؟

قلت لهم ـ كما سمعتم ـ فالتستلقوا، اغلقوا عيونكم، ولا تفتحوها حتى انبهكم.

الطماية: لعبة يلعبها الصغار، يغمض فيها احدهم عينيه ويختبىء الآخرون ـ ثم عليه أن يحدد امكنتهم.

«استغرقت المسافة عشر معزوفات بالضبط»

اضطجعوا كالكرات في ارضية الشاحنة، بينما واصلت محاولاتي تشخيص الطريق التي بدأنا باجتيازها، لكن السائق نبهني وبدون ان يكرر كلامه:

ـ ايضاً ينطبق مع حضرتك الشيء نفسه، يارفيق، اغمض عينيك لا اكثر. وضعت رقبتي على مسند الكرسي، واغمضت عيني وتركت نفسيي أسبح في تيار المعزوفات التي كانت تنبعث من مسجلة السيارة: اغنيات لراؤول شومو رينو، لوشو غاتيكا، هو غوروماني، اليومارتيني، الزمن يمضي، تتبدل الاجيال، لكن الاغنيات تبقى حية في قلوب التشيليين، اكثر من أي بلد آخر.

بين الحين والآخر كانت الشاحنة تتوقف، ويُسمع همس لم أفهمه، ومن ثم سمعت السائق يقول «الى اللقاء ـ سنلتقي»، اعتقد أنه كان يخاطب رفاقاً له تسمروا على تقاطعات مختلفة كانوا يعطونه تعليمات حول الجولة.

حاولت ان افتح عينيَّ وانا اعتقد بأنه لايراني. عندها اكتشفت انه وضع المرآه العاكسة بطريقة تمكنه من القيادة والحديث بدون أن يرفع عينيه عنا قال لنا ـ حذار ـ اذا فتح احدكم عينيه فسوف نعود بكم الى الدار، وينتهي المشوار.

عدت لاغلقها، وابتدأت اغني مع الراديو: احبك، ستعرفين أنني أحبك.

كان الايطاليون المستلقون في القسم المخصص للشحن يرددون علي كفرقة انشاء. انشرح صدر السائق قائلاً:

ـ هكذا ياصبيه، غنوا، لااكثر، فانتم تؤدونه بشكل رائع ـ استمروا على راحتكم.

قبل المنفى كانت هنالك اماكن عدة في سانتياغو يمكن تحديدها والعيون مغلقة: المسلخ، وذلك بسبب رائحة الدم المتعفن، وناحية سان ميغيل حيث روائح زيوت الموتورات وعدة السكك الحديدية. في المكسيك، حيث اقمت اعواماً عدة، كنت اعي بأنني قرب مخرج كويرنافاكا وذلك بسبب الرائحة المميزة لمصنع الورق، أو في منطقة ازكابوتزالكو بسبب دخان المضافي.

هنا وقد انتصف النهار في سانتياغو لم اشتم رائحة مميزة بينما كنا نغني، رغماً عن انني كنت احاول معرفة مكاني بكل مافي من روح للاستطلاع ـ في نهاية المطاف توقفت الشاحنة بعد عشر معزوفات، استدرك السائق قائلاً على عجل:

ـ لاتفتحوا اعينكم ـ سننزل بشكل طبيعي، كل واحد يمسك بيد الآخر، حتى لايهشموا لكم مؤخراتكم.

وهذا مافعلناه، وبدأنا نصعد وننزل في ارض رملية رخوه، ربما كان منحدراً لاتدركة الشمس، في النهاية دلفنا في مكان معتم أقل برودة حيث تنبعث روائح السمك الطازج، للحظة اعتقدت اننا في محاذاة البحر في بالبارئيسو، لكن المجال لم يكن مناسباً لمعرفة ذلك.

عندما امرنا السائق ان نفتح اعيننا، وجدنا انفسنا نحن الخمسة في غرفة ضيقة، ذات جدران نظيفة، واثاث غير ثمين حوفظ عليه

بشكل كبير. في مواجهتي كان هناك شاب، انيق المظهر، وقد لصق شواربَ مستعارة بشكل يثير الانتباه، انفجرت ضاحكاً، وقلت:

ـ رتب مظهرك بشكل افضل ثم تابعت لايعتقد احد ان هذه شواربك الطبيعية.

قهقه وهو ينزعها قائلاً:

ـ كنت في عجلة من أمري.

للوهلة سقطت كل الحواجز بيننا، ومن ثم انتقلنا الى الغرفة الثانية نتمازح، الى حيث كان يرقد شخص في ريعان الشباب، ورأسه معصوب لاصابة في رأسه، وقد بدا وكأنه للحظة قد افاق من نومه، عندها فقط فهمنا أننا في مشفى سري، مجهز بشكل جيد، وان الجريح كان فرناندو لاريناس سيجيل اكثر الشخصيات التي تلاحقها السلطة في تشيلي، في الحادية والعشرين من عمره، كان عضواً نشيطاً في الجبهة الوطنية (مانويل رود ريغيث).

قبل اسبوعين وبينما كان يقود سيارته عائداً الى بيته في سانتياغو، في الساحة الواحدة صباحاً، وحيداً وبدون سلاح، احاطة اربعة رجال بزي مدني يحملون أسلحة حربية. وبدون أن يأمرونه بشيء، أو حتى يسألوه عن شيء، أطلق عليه احدهم النار من خلال الزجاج، واخترقت الطلقة ساعده الايسر واصابته في الجمجمة. بعد ثمان واربعين ساعة، قام اربعة رجال من جبهة (مانويل رود ريفيث) بانتشاله من عيادة نويسترا سينيورا دي لاس نييفز، وهو في حالة اغماء وتحت الرقابة البوليسية، ونقلوه الى أحد المشافي السرية الاربعة التابعة للحركة. يوم التقيناه، كان في طريقه الى الشفاء، ولديه القدره الكافية للاجابة عن اسئلتنا.

بعد لقائنا بأيام قليلة، استقبلتنا القيادة العليا للحركة الوطنية،

وبنفس الاحتياطات الشبيهة بالسينمائية، ولكنها بطريقة تختلف عن سابقتها: فبدلاً من المشفى السري، وجدنا انفسنا في منزل من طراز بيوت الطبقة المتوسطة، شرح ودافىء، فيه مجموعة هائلة من الاسطوانات الموسيقية لعظماء ودهاقنه الموسيقى العالمية، ومكتبة قيمة تحوي كتباً جديدة بالقراءة يندر العثور عليها في العديد من المكتبات المرموقة. فحوى موضوعنا الرئيسي كان التقاط صور لهم، بالاقنعة، لكننا عدلنا عن ذلك في النهاية وقررنا أن نسترهم بوسائلنا التكنيكية، بالاضاءة، وبتمويه ملامح الصور، النتيجة ـ كما يشاهد في الفيلم ـ صورة اكثر ملاءمة وانسانية، وأقل قسوة من غيرها من المقابلات مع القادة السريين التقليدية السابقة.

بعد ان انجزنا المقابلات المختلفة مع شخصيات شعبية وسرية، اتفقت مع ايلينا على أن تقفل عائده الى نشاطاتها اليومية في اوروبا، حيث كانت تعيش منذ زمن بعيد، تخوض نشاطاً سياسياً على قدر كبير من الأهمية، وهي مؤهلة لأكثر المهام والمواقف خطوره. حتى تلك اللحظة كانت التجربة التي خضتها كفيلة بأن تمكنني من مواصلة وضع اللمسات الأخيرة على الفيلم، والتي من المفترض أن تكون أقل الفصول خطورة. لم اعد والتقيتها حتى هذا اليوم، لكنني للتو وعندما الفيتها تبتعد عني وتدلف محطة المترو، وقد ارتدت من جديد فستانها الاسكتلندي، وانتعلت حذاءها المدرسي، حتى ادركت واكثر مما تصورت، الفراغ الذي ستحدثه، بعد ساعات الحب العديدة الزائفة، والمخاطر المصيرية المشتركة التي اقتسمناها.

بات من الملح، وعلى سبيل الاحتياط، أن تغادر الفرق الاجنبية تشيلي، قبل أن ترحل من البلاد بالقوة، أو يحظر عليها العمل، قامت المقاومة في الداخل بمساعدتي في تشكيل فريق من السينمائيين الشبان،

وقد انتخبتهم الحركة من بين صفوفها، ذلك العمل كان في محله حيث قام هذا الفـريق بمجهود كبير وادى المهمة بنتائج حسنة كالآخرين، كانوا يعملون بشغف يعون مايفعلوه، حيث إن منظمتهم السياسية، طمأنتنا، بانهم ليسوا مطلقي الثقة فحسب وانما على اهبة الاستعداد لمواجهـة المخاطر. حتى اللحظة وقبيل نهاية اسبوع اصبح لدينا ست فرق تشيلية، بعـدما كانت الفرق الاجنبية غير كافية، بات ضرورياً استيعـاب اشخـاص آخـرين يقـومون بالتصوير في انحاء متفرقة من البلاد، عملت هذه الفرق الست في نفس الوقت وفي مناطق مختلفة، وقد اسدوا الينا جل جهودهم في تحديد ماكنت أصبوا اليه. هذا الجيل الناشىء، على اهبة الاستعداد، يتمتع بحيوية، ولا يتسرع في عمله، يعمل وبصمت من أجل تحرير تشيلي من الكارثة العسكرية. رغمًا عن حداثة سنهم، لم تكن لديهم تطلعات الى المستقبل المشرق فقط، وانما يزخرون بماضٍ حافل بالمجد والانتصارات السرية، التي يحفظونها في قلوبهم بكل تواضع.

«يضيق الحصار»

وصل الفريق الفرنسي الى سانتياغو، اثناء الايام التي قابلنا فيها قادة الجبهة الوطنية، بعد أن انجز برنامجه المقرر وحقق نتائج باهرة. كان لاغنى عن دوره، حيث أن الشمال موطن تشكيل الاحزاب السياسية التشيلية التاريخي. وبالتالي فهناك بالمستطاع،. التقاط أفضل صوره عن مجرى النشـاط الايديولـوجي والسياسي. بدءاً من لويس اميليو ريكـابـرين، مؤسس أول حزب عمالي، في مطلع هذا القرن، وحتى سالفادور الليندي. في هذه المنطقة، تقع أحد مناجم النحاس الاكثر غنى بالعـالم، والتي بدأ الانكليز باستغـلالهـا، في القرن الماضي اثناء مرحلة الثورة الصناعية، وهذا ماجذر طبقتنا العاملة. وهناك أيضاً جزء هام من نشـاط الحركة الاجتماعية التشيلية، والتي بدون شك اكثرها اهمية في امريكا اللاتينية. مافتىء الليندي وتسلم السلطة، حتى قام بتأميم مناجم النحاس، كان ذلك اكثر قراراته أهمية واكثرها خطورة، وعندما استحوذ بينوشيت على السلطة، كان أحد اولى قراراته اعادتها الى ملاكها التقليديين.

كان تقرير جان كلود مدير الفريق الفرنسي، مفصلاً، وشاملاً، حيث انه كان يتصورني موجوداً، على الشاشة امامه، اثناء عمله لتجنب العبث بوحدة الفيلم، حيث لم تكن لدي القدرة على متابعة جهوده، الا عندما يقفل عائداً الى مدريد، عندها سيكون قد فاتنا الأوان في بذل أي جهد لتنسيق الفيلم.

لم نجتمع في مكان محدد، وذلك ليس جراء ترتيبات امنية وانما بسبب تلهفنا في اقتناص فرصة التمتع بالتجوال أثناء وجودنا في تشيلي. تجولنا في مركز المدينة، ركبنا الباصات، التي يندر ركوبها، تناولنا القهوة في الأماكن التي يرتادها الناس بكثرة، تناولنا الصدف مع البيرة، وعندما حل الليل، اكتشفنا أننا على مسافة بعيدة عن الفندق، فدلفنا في المترو الذي لم اشاهده من قبل، كانت الطغمة العسكرية قد افتتحته، علماً بأن حكومة فريي(*) قامت بوضع حجر الاساس للعمل به، وواصلت حكومة الليندي خطة إنشائه ادهشتني نظافته، وفعاليته، وكيف أن أبناء بلدي اعتادوا على التنقل فيه تحت الارض بكل اريحية. كان ذلك بحد ذاته عالماً، لم أكن قد اكتشفته حتى تلك اللحظة، دار في خلدنا فكره، فلدينا الحجة المقنعة لطلب ترخيص بالتصوير فيه، بما أن الفرنسيين قاموا بانشائه، فإذن بامكان جان كلود أن يصوره. وصلنا محطة بدرو فالديفيا وهنا حدست ونحن نصعد الدرج خارجين بان احدهم كان يراقبنا، كان رجل امن بزي مدني، يتفرسنا ملياً، التقت نظراتنا في وسط الطريق. آنذاك كان بمستطاعي أن أميز شرطي مدني بين حشد من المارة. رغماً عن انه يساورهم الاعتقاد بانهم يتخفون بزي المواطن، الا أن لديهم هيئة مميزة، يرتدون سترة زرقاء قصيرة قاتمة، ولت موضتها، حليقي الشعر حتى لتخاله بمستوى جلد رؤوسهم، اشبه بالمكلفين العسكريين، أول مايبدر عنهم، طريقتهم في التحديق، فالتشيليون

(*) ادواردو فريي: رئيس تشيلي من ١٩٦٠ - ١٩٦٥ ومن ذلك العام واصل ايضاً حتى ١٩٧٠ إلى أن تولى الليندي مقاليد الحكم.

لايتلفتـون للناس في الشارع، انما يسيرون، او يستقلون الباصات، ونظراتهم ثابتة. تنبه الرجل المربوع القامة والذي كان يلاحقني بنظراته، انني اكتشفت كنهة. كان قد دس يديه في جيوب سترته الصوفية الخشنة، والسيجـارة بين شفتيه، وقـد اغمض عينـه اليسرى بسبب الـدخـان المتصـاعد من سيجارته كان بكل مالديه من قدرة يتصنع دور رجال المباحث في الافلام. لااعرف لماذا بدا لي وكأنه، غواتون رومو، قاتـل الـدكتاتورية المأجور، الذي اندس في صفوف اليسار، وتصنع التطرف. ومن ثم وشى عن العديد من النشاطات السرية، للسلطة حيث بطشت بها.

اعترف أن خطأي الفاحش، كان تحديقي فيه، لم أتدارك ذلك، لم يكن ذلك تصرفاً طوعياً وانما فطري، ومن ثم وبنفس القوة الفطرية، تلفت يساراً، وفي الحال يميناً الى ان هناك اثنين آخرين.

همست بصوت منخفض موجهاً حديثي الى جان كلود:

«تحدث معي في أي موضوع» ـ حدثني، ولكن اياك أن تبدي شيئاً، اياك أن تنظر، أو تفعل شيئاً».

فهم قصدي. تابعنا سيرنا بشكل طبيعي وهادىء، حتى صعدنا الى السطح. كان الليل قد اجتاحنا، والهواء كان معتدلاً وشفافاً اكثر من الايام الماضية، كان عدة من المارة تقفل عائدة الى بيوتها عن طريق الا لاميدا. عندها ابتعدت عن جان كلود قائلاً:

ـ اختف عن الانظار، سوف التقيك لاحقاً.

ركض يميناً، بينما غصت في جموع المارة في اتجاه معاكس. للتو أقلتني سيارة اجرة مرت أمامي وكأن أمي قد ارسلتها، سنحت عندها الفـرصـة لمشاهدة ثلاثتهم في ذهول وقد فرغوا من الصعود من محطة المـترو، وقتها تحيروا من يتبعون، جان كلود أم أنا، وابتلعتهم حشود

المارة. نزلت من السيارة بعد أن قطعت أربعة مفارق، واستأجرت سيارة أخرى في الاتجاه المغاير، ومن ثم انتقلت الى اخرى واخرى، حتى بات لي من المؤكد أنهم ليسوا في أثري. مالم استطع ادراكه، ولن ادركه ابداً، لماذا تعقبونا. دلفت اول سينما في وجهي، دون أن أدقق فيما كان عليه من برنامج للعرض، حيث أنني على قناعة تامة وبسبب حرفتي، بأنه لاتوجد بيئة اكثر أمناً، واكثر ملاءمة للتفكير منها.

«اتعجبك مؤخرتي يارجل؟»

ماكانوا يقدمونه في تلك السينما عرضاً يتضمن فيلمًا استعراضياً حياً، ما إن فرغت من الجلوس، حتى اختتم عرض الفيلم، ثم اضيئت انوار خافتة، تقدم مايسترو العرض على المسرح، واسهب في تقديم برنامجه الاستعراضي بشكل ممل. كنت مشدوهاً حتى تلك اللحظة، اتابع نظراتي نحو المدخل، أتأكد فيما إذا كانوا يتابعونني. أخذ جيراني يحدقون حيث انظر وقد اعتراهم حب الاستطلاع الذي لايمكن كبته، والذي اشبه بقانون في السلوك البشري، كما يحدث عادة في الشارع عندما يرفع أحدهم بصره الى السماء، وينتهي ذلك بأن تتوقف المارة وتأخذ بالتحديق في نفس الاتجاه.

كان المكـان غريبـاً ومثـيراً للدهشة، الديكور، الأضواء، ضم العرض السينمائي مع العرض الخلاعي الحي، فوق هذا وذاك كان جميع المشاهدين رجالاً، اشبه بالفارين من وجه العدالة. لاتعرف الى اين تلجأ، بدا جميعهم وانا اكثر منهم وكأننا متخفون حتى انه لم يكن بغريب على شرطي سواء كان محقاً في ذلك أم لا، أن يظن بان ذلك كان اجتماعاً سرياً مثيراً للشبهات. اثار القائمون على ذلك العرض، بشكل بديع الانطباع بانه محظور، وبالذات عندما بدأ المايسترو في تقديم العارضات على المسرح، وكأنهن اشبه بصحون لذيذة في الوجبة. كن عاريات كما خلقهن الله، لولا انهن تبرجن كي يظهرن فتنة اكثر مما هن عليه ماان انتهت الافتتـاحية، مكثت واحـدة منهن في المسرح، سمراء، مثيرة، وساحرة. كانت تهز جذعها وساقيها بدلال، تحرك شفتيها، على انغام اغنية لروسيو خورادو كانت تنبعث من اسـطوانة بصوت عالٍ جداً، لكـأنها كانت تغنيهـا. مضت برهـة كنت انتهـز فيهـا فرصـة ملائمة للخروج، آنذاك نزلت من على المسرح تجرجر وراءها شريطاً كهربائياً كبيراً كالأفعى وفي يدها الميكروفون، تتصنع الفكاهة العاهرة، عندما شعـرت بأن ضوءاً كشـافاً تسلط علي، تنادى الى مسمعي في الحال، صوتها قائلة بعهر:

ـ والآن. لنر حضره السيد ذا الصلعة البراقة:

لم يكن ذلك شخصي، وانما الذي انتحله، لكن لسوء حظي، كان عليَّ أن أجيب عنه. دنت العارضة مني وهي تجرجر الكابل وراءها، زفرت في وجهي، لدرجة تناءى الى أنفي رائحة زفيرها:

ـ مارأيك في اوراكي.

قلت والميكروفون على فمي: مابوسعي قوله لك، انهما رائعان ثم ادارت لي ظهرها، وهزت اليتيها في وجهي.

ـ وكيف تبدو لك، مؤخرتي، يارجل؟

قلت: رهيبه، تصوري !

كان يسمع بعد كل اجابة لي، تسجيل لقهقهات عدة في مكبرات الصوت، كما في افلام الكوميديا الخاصة بالاطفال في التلفزيون الامريكي. كانت تلك البدعة ضرورية، لانه لاحد يضحك في الصالة، بدا ساعتها وكأن كل واحد منهم ينشد الاختفاء عن انظار الاخرين.

دنت العارضة مني اكثر واستمرت تتلوى في وجهي، حتى شاهدت خالاً أسودَ نبت فيه الشعر، اشبه بالعنكبوت على احدى اليتيها.

ـ ايعجبك خالي يارجل؟

بعد كل سؤال كانت تقرب الميكروفون الى فمي، حتى ترفع من درجة صوت اجابتي.

قلت: طبعاً، فكل مافيك جميل.

ـ وماذا سيفعل حضرتك معي، اذا مادعوتك لقضاء ليلة في الفراش معي؟ هيا. هيا حدثني، حدثني بكل شيء.

قلت: انظري، لااعرف ماذا أقول لك ـ سأضاجعك كثيراً.

تلك المحنة ماكانت لتنتهي ابداً. في اثناء تشوش افكاري، نسيت الحديث بالاوروغوائية، وحاولت ان ابين ذلك في آخر لحظة. فعندما سألتني من أين أكون، حاولت أن اقلد لهجة الشخصية التي انتحلها وعندما نطقت، هتفت:

ـ الاوروغوائيون رائعون في الفراش، وحضرتك اليس كذلك؟

لم يبق امامي عندها، سوى ان اضع حداً لذلك وبصفاقه قلت:

ـ لو سمحت، كفى، لاتسأليني اكثر.

عندها تنبهت الى انه لايمكنها مواصلة ذلك معي، وفتشت عن آخر لتحاوره. حالما بدا لي أن خروجي لن يثير الانتباه، تركت الصالة على عجل، والانقباض المتزايد يجتاحني، يراودني الاحساس بان كل ماحدث لي ذلك المساء لم يكن بمحض الصدفة.

الفصل الثامن

انتباه :
هناك جنرال مستعد
لأن يروى كل شىء

الى جانب الاتصالات التي رتبتها ايلينا، قمت باتصالات على هامش العمل مع اصدقاء قدامى، ساعدوني في تشكيل فرق التصوير التشيلية، وساهموا في تحركي بمطلق الحرية في انحاء البلاد. اول شخص بحثت عنه في الايام التي تلت عودتي من كونسبسيون، كانت ايلويسا، امرأة رشيقة وجميلة تزوجت من ثري صناعي شهير. رافقتني الى حيث حماتها، ارملة تجاوزت السبعين عاما، مقدامة وذكية، كانت تقضي ساعات وحدتها تتابع برامج التلفزيون، حلمها الذهبي ان تصبح بطلة لمغامرات حية في الحياة اليومية.

كانت تربطني مع ايلويسا نشاطات سياسية قمنا بها في الجامعة وصداقة تعمقت خلال آخر حملة انتخابية لسالفادور الليندي، شاركنا

فيها في قسم الدعاية. عرفت بمحض الصدفة بعد وصولي بأيام قليلة، بانها نجمة شهيرة في العلاقات العامة. لم استطيع مقاومة رغبتي في أن اهتف لها على تلفونها دون ان اعرفها بنفسي، حتى أتأكد من انها هي. رد علي صوتها هادئا وواثقا، لكنني لم اتأكد من كلماتها. ذلك المساء انتظرت في كافتيريا في شارع هويرفانو، حتى اشاهدها وهي تخرج من مكتبها، لم يكن باديا عليها الاثنا عشر عاما التي مرت علينا، وانها كانت اكثر رشاقة وجمالا مما كنت اعهدها. ايضا دققت النظر، لم يكن معها سائق خاص، كما كنت اعتقد، كونها عقيلة برجوازي رفيع الشأن. وانما كانت هي من يقود سيارة الـ ب. م. دبل يو الـ ٦٣٥ الملفتة للنظر، ذات اللون الفضي لذلك ارسلت لها رسالة عبر البريد من سطر واحد: انطونيو هنا ويود مقابلتك.

كان ذلك اسمي الحركي الذي عرفتني به، خلال أيام النضال السياسي في الجامعة، وانا كنت على ثقة بانها تذكره. وكما توقعت في اليوم التالي، وفي الواحدة تماما، مرت سمكة القرش الفضية من خلال زاوية ابو كينادو، امام شركة رينو، قفزت داخل السيارة واغلقت الباب، اما هي فقد تجمد الدم في عروقها ذاهلة، حتى عرفتني من ضحكتي، وقالت: أ أنت مجنون؟

قلت لها: أيساورك شك في ذلك؟

توجهنا لتناول طعام الغداء في «الميسون»* الذي ذهبت اليه اول مرة.

كانت ابوابه مغلقة وقد دق تقاطع من الخشب عليها، وبدا اعلان وكأنه شاهد لقبر «اغلق نهائيا» لذلك توجهنا الى مطعم فرنسي كنت اعرفه في تلك الانحاء. لا اذكر اسمه، لكنه كان مريحاً، ويخدمون فيه بشكل جيد، يقع امام الماخور الاكثر شهرة ورونقا في المدينة، انشرحت

* الميسون: مطعم شعبي صغير في الغالب تديره عائلة.

ايلويسا كثيرا وهي تتعرف على سيارات الزبائن الذين كانوا يمارسون الجنس، بينما كنا نتناول الطعام، لم افاجأ بنضج خلقها الرائع. دخلت في الموضوع، وحدثتها دون تحفظات عن غرضي السري، وطلبت عونها في القيام ببعض الاتصالات التي لاتشكل خطرا عليها، كونها متسترة بمواصفات طبقتها. حدث ذلك، بينما لم نعثر على حل لمعضلة التصوير في المناطق الآهلة حيث كان يعوزنا عرابين سياسيين، كنت اعتقد بانها تستطيع مساعدتنا في العثور على اصدقاء لكلينا منذ زمن الوحدة الشعبية، فقدت اتصالي بهم في غياهب ظروف العمل السري.

لم تتحمس لذلك فقط، وانما رافقتني ولثلاث ليال لحضور اجتماعات سرية كانت تعقد في قطاعات من المدينة، يثير الوصول اليها الشبهة مستقلا سيارة مقدسة مثل سيارتها.

قالت بسرور: لااحد يعتقد بان سيارة ب أم دبل ديو ٦٣٥، معادية للدكتاتورية، فبفضلها لم يقتادون ذات ليلة عندما فوجئت وانا برفقة ايلويسا بانقطاع التيار الكهربائي، حيث كانت المقاومة تقوم وبشكل متكرر بقطعه تلك الايام. كان قادة الاجتماع قد نبهوني الى ذلك قبيل الحدث. اول مرة انقطع التيار الكهربائي ولمدة اربعين دقيقة ومن ثم مدة ساعة، وبأن هناك انقطاعا ثالثا سيترك سانتياغو بدون انارة مدة يومين او ثلاثة.

تقرر ان يكون الاجتماع في ساعة مبكرة، اذ ان قوى الامن ستصبح في حالة هستيرية كبيرة. خلال فترة الانقطاع، وبحيث تعتقل دورياتهم في الشوارع أيا كان تحت طائلة الشبهات. وبعد ذلك بفترة يحل موعد حظر التجول. فوجئنا ولم نكن قد فرغنا من المقابلة الرئيسية، عندما حدث اول انقطاع. اشار قادة الاجتماع علي وعلى ايلويسا ان نغادر المكان بسرعة، لان التيار سيعود سريعا، واما البقية فستخرج بعد ذلك

كلا على حدة. وهذا ما حدث؛ ما إن عاد التيار كنا قد غادرنا بسرعة وسرنـا في شارع غير معبد يحاذي جبلا. فجأة وعند منعطف، وجدنا انفسنا في مواجهة قافلة من العربات التابعة للمخابرات CNI وقد سدت الشـارع ما عدا ممر ضيق في وسط الشـارع. كانوا يرتدون زيا مدنيا ومسلحين برشاشات اتوماتيكية، حاولت ايلويسا التوقف لكنني منعتها.

قالت: من المفروض التوقف. قلت لها: استمري ولا تنفعلي... استمري وانت تحادثيني ضاحكة، لاتتوقفي ما داموا لم يأمرونك بذلك، واوراقي الثبوتية جاهزة ومضبوطة.

ما ان فرغت من قول ذلك، حتى تحسست جيوبي، تجمد كبدي: لم تكن محفظة الاوراق الثبوتية معي. توقف أحدهم في وسط الشارع، ورفع يده، وكان على ايلويسا ان تتوقف، سلط نور البطارية اليدوي على وجوهنا، تفقد بالضوء انحاء السيارة واشار علينا بالمرور، دون ان يتفوه ببنت شفة. كانت ايلويسا محقة في ذلك: لايساور احدا الاعتقاد ان هناك خطرا سياسيا يأتي من سيارة كسيارتها.

«جدة تقفز بالمظلات»

في تلك الايام تعـرفت على حماتهـا، قرر كلانا ان يلقبها كلمنسيا ايسـاروا منذ اول زيارة لها، دار في خلدنا ان ندعوها بذلك دون ان نعرف كنهة قمنا بزيارتها دون ان نشعرها مسبقا بذلك في منزلها الكبير والبديع رقم ٧٢٧ في احد الاحياء الراقية، في الخامسة مساء، وجدناها في حالـة من الغبـطة، تتنـاول فنجـانـا من الشـاي مع البسكـويت الانكليزي، بينما كان يسمع في الصالة صدى الاسلحة البعيدة المدى، بدت شاشة التلفزيون ملطخة بالدم. كانت ترتدي زيا ذا ماركة شهيرة، حاكته الايدي، وتضع قبعة وقفازات يدوية، اعتادت تناول الشاي في الخامسة تماما وهي ترتدي ملابسها، كما لو انها تهيأت للخروج لحفلة عيد ميلاد، حتى لو كانت لوحدها، اشبه بها في الروايات الانكليزية، لكن ذلك لم يكن ليتلاءم مع شخصيتها، فقد كانت متزوجة، ولديها ابناء، قادت طائرات شراعية في كندا وحققت رقما في القفز المظلي.

عندما استشفت اننا نبحث عنها لاجل مهمة سرية، هامة وخطرة، قالت لي: «يا للروعة، فالحياة مملة جدا هنا، الواحد منا يلبس، يرتب

نفســه، يتـأنق، لكنـه لايعرف لماذا». هدفنا على وجه التحديد، ان تساعدنا في البحث عن خمسة اشخاص في احياء مختلفة من المدينة؛ ذلك احبط من عزائمها، قالت: أمن أجل وضع قنابل؟؟

لم أحبذ ان الجأ في بحثي عن الخمسة عبر وسائل رجال المقاومة المعتادة.

عمـل جميعهم معي في السـابق، ايام الوحدة الشعبية، ولم اعرف عنهم شيئاً فيما بعد احدهم كان الذي نبه زوجتي الى انهم كانوا يعدمونني يوم الانقلاب العسكري امام مكاتب تشيلي فيلمز. آخر قضى السنة الاولى من حكم الدكتاتورية في معسكر للاعتقال، ومن ثم تابع حياته الاعتيادية في سانتياغـو، يؤدي نشاطات سياسية. آخر مكث مدة في المكسيك، حيث قام باتصـالات مع المنفيين التشيليين، وعاد باوراقه الثبوتية الرسمية للعمل في الداخل مع المقاومة، آخر شاركني نشاطاتي في كلية المسرح، ثم تابعنا معا في السينما، والتلفزيون وفي الوقت نفسه فهو قائد عمالي نشط. آخر كان قد مكث في ايطاليا مدة عامين، والان يعمل سائقا لشاحنة نقل، وهذا ما يؤهله ان يسدي الينا عملا جليلا، استبدل الخمسة منازلهم، المهنة، الهوية، ولم يكن امامي سبيل اعثر به عليهم. يوجد الان الاف من التشيليين يعيشون بهذه الطريقة يعملون مع المقاومة، بهويات مختلفة عن التي كانت معهم حتى عام ١٩٧٣، كانت مهمة كلمنسيا ايساورا ان تعثر على الخيط الذي يوصلنا بالكرة، ايضاً كان لا غنى عن ذلك، حيث سأتعرف على اوضاعهم واحوالهم، قبل ان يتبين لهم انني في تشيلي، والبحث فيما إذا كان بوسعهم مساعدتي.

لم اعـرف كيف قامت بالبحث بشكـل مفصل، بالكاد كان لدينا الوقت الكافي للقائنا قبيل خروجي بهدوء وكذلك لم اوجه اليها العديد

من الاسئلة حول ذلك، ولانه آنذاك لم يدر في الخلد رواية مغامرتها في هذا الكتـاب، الشيء الوحيد الذي قالته لي، بانها لم تشاهد ابداً في التلفزيون فيلمًا رائعاً كالذي عاشته. اعرف بانه كان عليها ان تقضي ايامـاً كاملة على اقدامها وهي تبحث في الاحياء الفقيرة، تسأل هنا، وتبحث هناك، في الاشياء القليلة المبعثرة في رأسي، والتي غابت عن ذاكرتي، نبهتها ان تلبس بطريقة تجعلها غير مميزة في وسط الفقراء، لكنها لم تعر اقوالي انتباهاً. ذهبت كما لو انها تريد شرب الشاي مع البسكويت الانكليزي في عوالم الفقــراء البـائسـين، حيث الضجـة القـاذورات والفـوضى في منـطقـة مسلخ سانتياغـو، كانت مفاجأة لمن اصطدموا برؤيتهـا فجـأة في ذلـك المرتفع القديم حيث تبحث عن عناوين غير واضحة بفضول مثير للريبة.

كان لطفها ودفؤها البشري لايُقاوم، وكانت تعطي الثقة في الحال، كانت نتيجة ذلك بعد اسبوع، ان عثرت على ثلاثة من المفقودين ورتبت لاجلهم في رقم ٧٢٧ مأدبة لم اشاهد افضل ولا اكثر ابهة، مما لو كانت عليه مأدبـة انكليزية. من هناك تأسس اول فريق تشيلي، وتم برمجة الاتصالات لاجل التصوير في المناطق الآهلة المتفرقة، لايمكن اغفال دور البطلة في المراحل التالية، تعاونت، بدون كلل وبتواضع. كانت مثيره للاعجاب، ونادراً ما كانت تُشاهد، يتفتق ذهنها عن حلول لم يسمع بها من قبل، فيها مقومات عضو التنظيم السري، بذلوا جهدهم حتى لايحدث أي خلل اثناء التصوير في تلك الاماكن. كان الاسم الذي اطلقناه عليها، والوحيد الذي عرفناها به، وكان محدداً لصورتها وتخليداً لجهودها: «النحلة التي لاتقهر».

«البحث الطويل عن الجنرال الكتريك»

بينما كانت كلمنسيا ايساورا تبحث. استثمرت ساعات الفراغ بعد التصوير وقمت باتصالات مع مستويات عليا بمساعدة ايساورا، ذات ليلة بينما كنت مع ايلويسا في احد المطاعم الفخمة ننتظر مبعوثاً لم يصلنا ابداً، عندما دخل جنرالان بصدرين اشبع بدرعين من كثرة النياشين والميداليات حيتهم بيدها عن بعد بطريقة عائلية جداً، اعتمرتني مشاعر قائمة عن المستقبل. اقترب احدهما من طاولتنا، وتحادث واقفاً على قدميه مع ايلويسا، حول المجتمع المخملي لعدة دقائق، دون ان يلتفت نحوي بنظرة. لم اعرف رتبته، فأنا لم اتعلم، كيف اميز بين نجوم الجنرالات ونجوم الفنادق.

عندما عادت الى الطاولة، اخفضت صوتها، وحدثتني لاول مرة عن علاقاتها الطيبة مع بعض العسكريين ذوي الرتب العليا، والذين اعتادت رؤيتهم بسبب عملها.

حسب وجهة نظرها، ان احد اسباب استمرار بينو شيت في السلطة، انه ازاح عن الخدمة اولئك الضباط، الذين هم من جيله، واحاط نفسه بقيادة عليا من ضباط جدد، دائماً كانوا اقل رتبة منه، ليسوا باصدقائه، وبالكاد يعرفهم، معظمهم يطيعه طاعة عمياء. لكنه في

الـوقت نفسـه اكثر جوانبه ضعفاً حيث ان العديد من الضباط الجدد يشعرون بان ايديهم نظيفة ولم تتلطخ باغتيال الرئيس الليندي، ولا حتى بالممارسات البربرية في اعوام القمع الدموي والاستيلاء اللا مشروع على السلطة، ويعتقـدون أن القـدرة الالهية اختـارتهم، ليسـترد المـدنيون الديمقراطية المسلوبة منهم دون عناء، استمرت ايلويسا، وأنا مذهول مما تقوله، الى ابعد من ذلك: على الاقل ان جنرالاً ممن تعرفهم كان على استعداد لان يفضح وللملأ عمق الفساد الداخلي في القوات المسلحة.
قالت - هذا، لديه الاستعداد للحديث هزني الخبر. ان استطيع تقديم ذلك الدليل في فيلمي، يعني اثارة ضجة ولذلك غيرت وبشكل كامل خططي في الايام القـادمـة. لسوء الحظ، لم تستطع ايلويسا ان تحدد عواقب اللقـاء الاول، ولا الوقت كان يسمح لهابمحاولة معرفة ذلك لانها ستذهب الى اوروبا في رحلة، لثلاثة شهور مع وزجها، بعد يومين.

ولكن بعد ذلك بايام قليلة، هتفت الى كلمنسيا ايساورا، على جناح السرعة الى بيتها وقدمت لي الشيفرة التي قدمها احدهم اليها بناءً على طلب من ايلويسـا لاجل العثور على العسكري المستعد لقول ذلك، والذي عمدناه باسم سري، الجنرال الكتريك. اعطتني لوحة الكترونية صغيرة جداً للعب الشطرنج، حيث كنت سأذهب في اليوم التالي الى كنيسة سان فرانسيسكو، أتأبط اللوحة ابتداءً من الخامسة مساءً.

لاأذكر منذ متى لم ادخل كنيسة. احد الاشياء التي اثارت انتباهي، هي مشاهدة العديد من النسوة يُحن الصوف، والرجال يقرأون قصصاً وجرائد، ويعبثون ويضيعون الوقت بأي شيء ما عدا الصلاة. عندها فقط، عرفت لماذا ارسلتني ايلويسـا مع لوحـة الشطرنج الالكترونية، فللوهلة الاولى، بدا لي وكأنه من غير المناسب ان اذهب للتسلية داخل

الكنيسة. يوم وصولي كنت قد شاهدت الناس بُكمًا، منكمشين على انفسهم، في ذلك المساء. في الحقيقة كان الناس في تشيلي بنفس الصورة قبل الوحدة الشعبية. حدث التبدل الكبير عندما ترشح الليندي للسلطة عندها تشجع الناس وبات بالامكان الظفر، فَبَدَلنا الانتصار فجأة لنصبح في بلد مغاير: اخذنا نغني في الشوارع، نرسم على الجدران، الكل كان يتيه في المظاهرات الحاشدة، حيث كنا نفرغ رغبتنا الجامحة بالحياة.

انتظرت يومين متتاليين، العب الشطرنج مع شخصي الآخر، الاورغوائي حتى سمعت خلفي، همس امرأة، كانت جالسة خلفي، دنت مني وهمست في اذني: - لاتنظر حولك، ولاتقل شيئاً. - وكأنها تعترف أمام الراهب في الكنيسة وتابعت: - احفظ في ذاكرتك رقم الهاتف، والاشارات السرية التي سأتلوها عليك، ولا تخرج من الكنيسة قبل خمس عشرة دقيقة من خروجي.

عندما نهضت وتوجهت نحو المذبح الاكبر، تبين لي أنها راهبة شابة وجميلة جداً. ما كان عليَّ حفظة هو الاشارات السرية. حيث انني سجلت الرقم في لوحة الشطرنج الالكترونية، كان يفترض ان يكون هذا السبيل الذي سيقودني، الى الجنرال الكتريك، لكن يبدو ان الرياح جرت بما لاتشتهي السفن.

في الايام التالية، مررت رقم الهاتف المطلوب، دون خطأ، وظمأي يتزايد، دائمًا كان الرد نفسه: «في اليوم التالي».

«من يستطيع ان يتفاهم مع الشرطة»

فاجأني جان كلود بما كنت لاانتظره، فقد اعتقلت الشرطة ثلاثة اعضاء يشكلون فريقاً ايطالياً سينمائياً كان يعمل في تشيلي، في احوال غامضة، حيث قامت الشرطة باعتقالهم بينما كانوا يصورون بدون مأذونية في بلدة لاليغوا، هذا طبقاً لما نشره مكتب فرانس براس في سانتياغو ونشر في باريس ومؤرخاً في الاسبوع الماضي.

اعتقد فرانكي بان نهايتنا قد اقتربت، تقبلت الامر بهدوء. لم يكن جان كلود على بينة ان هناك فريقين آخرين اضافة لفريقه يعملان معي، وكذلك لم يكن الفريقان الأخران يعرفا شيئاً عن الفريق الفرنسي، اشعاره لنا لم يكن سوى من قبيل المصادفة ونظراً لتشابه العمل. اذا اعتقل احد في نفس الشروط، فهذا يعني انه سوف يعتقل، وقد خاف ان يلقى المصير نفسه.

حاولت تهدئته قائلاً: لاتكترث، هذا ليس له علاقة بموضوعنا.

ما ان تركني لوحدي، حتى ذهبت لاتفقد الايطاليين، فوجدتهم في احسن حال، وبدون اية مشكلة، وفي مكانهم المحدد. كانت غراسيا قد عادت من اوروبا، وكانت آنذاك على رأس الفريق، اكد لي اوغوبان البرقية قد تعممت في ايطاليا ايضاً، رغماً عن نفي الوكالة الايطالية لذلك.

السيء في الامر، ان الخبر الكاذب كان يعنيهم هم وبأسمائهم، وانتشر ذلك بسرعة هائلة. هذا لم يكن غريباً، سانتياغو تحت الحكم الدكتاتوري اشبه بمنحلةٍ للشكوك. تلد، وتتكاثر، ثم تتلاشى، تثير الذعر مرات عدة في اليوم، لكنها دوماً تعبر عن شيء من الصحة.

لم يمر الخبر بشكل عابر. فقد كان على مدار الالسن في اليوم الفائت، اثناء حفل استقبال اقامته السفارة الايطالية، فما ان دخل اعضاء الفريق في الفارة حتى هب لاستقبالهم رئيس مديرية الاتصالات العامة، والذي قال كي يسمع جميع المدعوين: تعالوا هاكم يا حضرات، ها هم المعتقلون الثلاثة. كان لدى غراسيا حدس، بانهم يتعقبونهم قبل ان تعرف بمضمون البرقية.

بعد ان انتهى حفل السفارة، ولدى وصول الفريق الى الفندق، بدا لهم وكأن احدهم عبث في حقائبهم واوراقهم في غرفهم، ولكن لم يختفِ شيء منها. من الممكن ان يكون ذلك هاجساً، وفي الوقت نفسه يمكن ان يكون تعبيراً عن التحذير، في جميع الاحوال، كانت هناك اسباب عدة للاعتقاد. بأن هناك شيئاً يحدث في الخفاء. تلك الليلة لم استطع النوم، وانا اكتب رسالة الى رئيس محكمة العدل العليا، استنكر عودتي لوطني في السر، من أجل ان تكون جاهزة في حالة اعتقالي. لم تكن الفكرة الهاماً نزل عليَّ فجأة، وانما حصيلة انعكاسات كانت تتراكم بشكل حثيث وتستعجلني، نظراً لان الحصار بدأ يضيق الخناق.

في البداية، استقبلتها كجملة مأساوية، اشبه برسائل البحّارة التي يضعونها في زجاجة ويلقونها في البحر. في لحظة، وبينما كنت اكتب تنبهت الى انني بحاجة الى احقاق عملي سياسياً وانسانياً، فقد تنبهت الى واجبي في التعبير عن احاسيس الالاف من التشيليين الذين يعاونون مثلي طاعون اقتلاع الانسان من وطنه.

عدت، وبدأت مرات عدة، مزقت العديد من الاوراق التي تلتمس الصفح وانا منغلق على نفسي في غرفة موحشة في الفندق، والتي كانت وبكـل الاحـوال غرفة لمنفي في وطنه، عندما فرغت، كانت أجراس الكنائس قد بدأت تنادي للصلاة، وقد عكرت صمت حظر التجول، وكـانت اوائـل خيوط الضوء المتسللة، تشير الى آلام شديدة، خلال ضباب ذلك الخريف الذين لاينسى.

الفصل التاسع

حتى أمي لم تعرفني

كانت لدينا عدة اسباب كافية للقلق من انه، قد اصبح لدى الشرطة معلومات تفيد بانني في تشيلي، وعن ماهية العمل الذي نقوم به. قضينا شهراً في سانتياغو، شوهدت اثناءه الفرق في الاماكن العامة، اكثر مما يتفق مع الوضع، واجرينا العديد من الاتصالات مع شخصيات مختلفة، العديد منهم كان على بينة بانني اقود الفيلم. تعودت على وضعي الجديد لدرجة انني نسيت الحديث بالاوروواغوائية، لم اعر كثيراً جانب الحذر في الحياة اليومية. في البداية، كنا نعقد الاجتماعات في سيارات تتحرك دون اتجاه محدد، في كل ارجاء المدينة، وكنا نغير اتجاهنا كلما تجاوزنا اربعة أو خمسة مفارق، كانت طريقة معقدة جداً تورطنا في مخاطر اكثر سوءاً من تلك التي نحاول تجنبها. ذات ليلة حدث، وأن نزلت من سيارة على تقاطع بروفيدنثا مع لوس ليونس، حيث ستقلني

سيارة زرقاء رينو ١٢ ، بعد خمس دقائق. كان يميز السيارة لوحة لجمعية الـرفق بالحيوان، الصقت على الزجاج الواقي من الريح، وصلت في الوقت المناسب، فصعدت في المكان الامامي لسيارة رينو ١٢، زرقاء لامعة ايضاً، لم ادقق فيها اذا كانت تضع اللوحة، كما هو متفق، فاذا بامـرأة ناضجة لكنها لا زالت تتمتع بجمال باهر وقد زادت الحلي من فتنتها، يفوح عطرها الساحر، ترتدي معطفاً يميل لونه الى الوردي يفوق سعـره مرتـين أو ثلاثـة اضعـاف سعر السيارة، انها مثال حي لطبقة سانتياغو الراقية.

ما أن شاهدتني اندفع في السيارة، حتى فغرت فاها من الرعب، لكنني استعجلت اهدئها بكلمة السر.

اين استطيع شراء مظلة واقية من المطر في هذه الساعة.

ـ استدار الّي سائقها الخاص ونبح

ـ انزل، والا استدعيت لك الشرطة.

تنبهت الى انه لم تكن هناك اللوحة المطلوبة على واقية الرياح، للتو شعرت بالم في معدتي جراء هذا الاحراج.

قلت: ـ آسف، أخطأت في السيارة.

استعـادت المرآة توازنها، وامسكت بذراعي، وهدأت السائق برقة شفافة وسألته:

ـ أتكون ابواب مخازن باريس مفتوحة في هذه الساعة؟

اعتقد السائق بانها مفتوحة للبيع في ذلك الوقت، بدا لي أنها جادة في مرافقتي الى حيث اشتري المظلمة، لم تكن جميلة فحسب، وانها لطيفة ودافئة، ايضاً تملكتني الرغبة الجامحة في ان انسى ولو لليلة واحدة، القهر السياسي، والفني، وأن أغـوص معهـا في ذلـك الجو المشبع بالدفـء البشري. تركتني عند ابواب مخازن باريس، واعتذرت عن عدم مرافقتي

في البحث عن المظلة، اذ انها تأخرت نصف ساعة تقريباً عن أخذ زوجها لحضور حفل موسيقي لعازف عالمي شهير على البيانو، لا اتذكر اسمه.

مخاطرنا كانت تتمثل في تعودنا، ففي كل مرة كنا نستخدم جملاً قليلة التدوال، عندما نتعرف على هوياتنا في بداية اللقاءات السرية. اصبحنا ومن أول تحية اصدقاء لرسل المقاومة، ولم نكن ندخل بشكل مباشر في موضوعنا، وانما كنا نتبادل الحديث مطولاً حول الوضع السياسي، وعن المستجدات في السينما، والأدب، وكذلك الحال مع اصدقائي السابقين الذين كنت شغفاً لرؤيتهم، رغمًا عن التحذيرات التي سبقت هذه الرغبة حرصاً على امنهم، وصل رسول مره في الموعد المحدد وليؤكد بساطته اتى برفقة أحد اطفاله، سأل هذا الاخير وهو يكاد يختنق من الدهشة: - «انت الذي تعمل فيلمًا عن سوبرمان». هكذا بدأت افهم انه من الممكن العيش في تشيلي متخفياً، مثل مئات عده من المنفيين الذين عادوا سراً ويواصلون حياتهم اليومية، دون الشعور بتوتر الاعصاب الذي انتابني في البداية، لولا ارتباطي بالفيلم، الذي لم يكن يتعلق فقط بوطني، وباصدقائي، وانما بي ايضاً، لكنت غيرت حرفتي ووسطي الاجتماعي وواصلت حياتي في سانتياغو بوجهي الحقيقي. كان علي أن ارغم نفسي على التعقل ولو بادنى درجة، وان اتصرف بطريقة أخرى، امام ثورة الشك بان الشرطة تتعقب خطواتنا. بقي معلقاً امامنا، القيام بالتصوير داخل قصر المونيدا، حيث انه لتلك اللحظة، كان التصريح غير جاهز، يعاني تأجيلاً متواصلاً دون أن نعرف كنه الاسباب، وايضاً بقي معلقاً امامنا، تصوير بويرتومونت والوادي المركزي، المفاجأة المحتملة، مقابلة الجنرال الكتريك. صممت أن أقوم بالتصوير بنفسي في الوادي المركزي حيث انها منطقتي التي ولدت

وترعرعت وعشت مراهقتي فيها. ما زالت والدتي تواصل حياتها هناك في قرية بالميا الفقيرة، حذروني من مغبة زيارتها، دائمًا، ولاسباب امنية.

اول ما قمت به كان اعـادة تنظيم ادوار الفرق الاجنبية، بطريقة تمكنهم من انجاز المهمة وبدون مجازفات، والعودة حال الانتهاء من ذلك سريعاً الى بلادهم، فقط سيبقى الايطاليون في سانتياغو، لارافقهم في تصوير لامونيدا. سيعود الفريق الفرنسي الى باريس في اقرب فرصة بعد أن انجـز تصـوير «مسيرة الجوع» والتي سيعلن عنها في الايام القليلة القادمة. سيرحل الفريق الهولندي والذي كان ينتظرني في بويرتومونت، لمشاركتهم التصوير وعلى مقربة من الدائرة القطبية، ومن ثم يرحل الى الارجنتين بعد ذلك، عبر الطريق البري المار من باريلوشي.

بعـد رحيل الفـرق الثـلاث، نكـون قد انجزنا تصوير ٨٠٪ من الافلام، حيث تسلم في مدريد لتظهيرها. كانت ايلي قد اتمت مرحلة هامة عندما وصلت اسبانيا، حيث وجدت الفيلم جاهزاً للمونتاج.

«اتى ليتين، صور ثم رحل»

امام الاوضاع المشوشة ايامها، لم يكن امامنا سوى فرصة ان تقوم بخروج زائف من البلد، ومن ثم نعود لندخله من جديد. وباحتياطات اشد من السابق. اعطتني الرحلة الى بويرتو مونت، فرصة ثمينة، فقد كان سهلاً علي القيام بتصوير ذلك من الارجنتين. مثله مثل تشيلي، وهذا ماحدث، اذ طلبت من الفريق الهولندي ان ينتظرني هناك، وتواعدت مع احدى الفرق التشيلية، أن تلتقيني بعد ثلاثة أيام في وادي كولشاغوا وسط البلاد، اقلعت برفقة فرانكي جواً الى بوينوس ايريس، قبل ذلك بساعات قليلة اتصلت هاتفياً بمجلة اناليسز، دون أن أحدد هويتي وقمت بتقديم مقابلة مع الصحفية باتريشيا كولبير، شملت دخولي السري الى سانتياغو، بعد خروجي بيومين، نشرت المقابلة مرفقة بصورة لي في الصفحة الاولى، تحت عنوان فيه روح السخرية الرومانية: اتي ليتين، صور ثم رحل.

وكي يبدو ذلك حقيقياً، اقلتنا كلمنسيا ايساورا، انا وفرانكي الى مطار بوداهويل، تقود سيارتها الخاصة، وودعتنا بقبلات ودموع مسرحية.

كنا قد ثبتنا خروجنا بهذه الطريقة، وكانت عيون المقاومة تشيعنا عن قرب، حيث كانوا سيعلنون عما اذا اعتقلونا، سمح لنا هذا ان نعرف وفي المقام الاول، عدم وجود اسمينا في قائمة المطلوبين، وكذلك سمح لنا بان نثبت خروجنا فيها اذا جرى تحقيق في المستقبل بهذا الصدد، عندها ستعتقد الشرطة إننا خرجنا من البلد.

في بوينوس ايريس، ابرزت جواز سفري الاصلي، حتى لا اقع في مشاكل مع بلد صديق. بينما كنت افتح الجواز في شباك الهجرة والجوازات، تنبهت الى خلل لم اتجنبه: فقد اخذت الصور، على جواز سفري الاصلي، قبل تنكري، وهي لاتشبهني كثيراً. كان من الصعب التعرف علي وحاجباي مقلمان، وصلعتي اكثر انتشاراً، وايضاً بعدسات طبية. كانوا قد حذروني منذ زمن، اذ ان صعوبة انتحال شخصية لا تقل صعوبة عن استعادة الشخصية الاصلية لكنني كنت قد نسيت ذلك تماماً، وأنا في أمس الحاجة لمعرفة ذلك. لحسن حظي، لم يدقق المفتش في بوينوس ايريس تقاسم وجهي، وهكذا كتبت لي النجاة من المأساة، بصمت، فأنا لم أكن ساعتها بقادر أن أكون أنا بنفسي.

طبقاً لتوجيهاتي، كان على فرانكي، ان ينسق مع ايلي بواسطة الهاتف، تفاصيل المهمة الباقية، وكذلك أن يستلم النقود التي ارسلتها من مدريد كمصروفات للمسات الاخيرة.

افترقنا هناك، على ان نلتقي في سانتياغو. اقلعت بالطائرة الى مندوزا، في الاراضي الارجنتينية، كي اقوم بتصوير الهضبة التشيلية، كان ذلك في غاية السهولة، وحيث تمكنت من العبور من مندوزا الى تشيلي عبر نفق دون أن تعترضنا نقاط تفتيش مشددة. اجتزت الحدود سيراً على الاقدام، وحيداً، ومعي كاميرا خفيفة ١٦ ملم، وقمت بالتصوير من الطرف الآخر كما قمت به اولاً، وعاودت الخروج وقد

اقلتني سيارة للشرطة التشيلية، حيث تعاطف سائقها مع هذا الصحفي الاورغوائي، العاثر، والذي ليس لديه ما يؤهله للعودة الى الارجنتين.

تابعت طريقي من مندوزا الى موقع باريلوشي الحدودي الآخر جنوباً. اقلعنا في مركب قديم محمل بالسياح الارجنتينيين، والاورغوائيين، والبرازيليين، وايضاً التشيليين العائدين لديارهم. من ذلك الموقع وعبر الطبيعة القطبية المتوهجة، والانهيارات الثلجية الضخمة الى الحدود التشيلية، ثم نقلتنا في الجزء الاخير الى بوير تومونت (عبارةً) مهشم زجاج نوافذها، حيث كانت الريح القطبية تصفر فيها كعواء الذئاب، ولم يكن هناك مكان نلتجىء إليه من البرد الرهيب. ولا حتى ما يؤكل أو يشرب: لاقهوة ولا كأس من النبيذ، لاشيء. لكن حساباتي كانت دقيقة، فاذا ما اكتشفت الشرطة أنني خرجت من المطار، فانه ليس من السهل أن يتكهنوا أنني عدت مجدداً ودخلت في اليوم التالي من نقطة تبعد ألف كيلو متر من سانتياغو. قبيل الوصول الى نقطة التفتيش الحدودية، جمع موظف في القارب حوالي ثلاثمائة جواز سفر، والتي بالكاد دققوها، سريعاً أعادوها ودون أن يمهروها بدمغ الدخول. باستثناء التشيليين الذين دققت أسماؤهم وقورنت بالقائمة الطويلة للمنفيين الممنوعين من العودة، والتي كانت مبتة على الجدار، أمام أعين المراقبين. أما بالنسبة لنا، فقد تم عبورنا الحدود دون عراقيل. سوى أن موظفين لم أعرف أنهما من الشرطة بسبب ملابسهما القطبية، أمراني بفتح الحقائب. لكنني تنبهت الى أن ذلك كان بمحض الصدفة، ولم أكترث كثيراً، لانني كنت واثقاً من أنني لاأحمل شيئاً لايتعلق بهويتي الزائفة. بيد أنه عندما فتحت الحقيبة، قفزت الى الاعلى وتدحرجت على الارض، علب سجائر (الجيتان) العديدة الفارغة، والتي كتبت على العديدمنها ملاحظاتي حول التصوير.

عنـدمـا وصلت البلد كنت قد جهـزت نفسي بكمية كبـيرة من (الجيتان)، ولمدة شهرين، ولم أجرؤ على رمي العلب الفارغة، كانت كبـيرة، وكرتونها صلباً، تثير الملاحظة وبشكل كبير في تشبيلي، وكذلك فانها تترك أثراً سهلاً للشرطة عني.

كنت أحتفظ في جيوبي بالعلب التي أفرغ منها، ومن ثم أخبئها في كل الانحاء، كتبت على العديد منها ملاحظاتي حول التصوير. بدا لي وفي لحظة ما، وكأن ذلك كان قدراً، فقد كانت محشاة في كل جيوب ملابسي المعلقـة في الخـزانـة، تحت الفراش، في السرير، في حقائب السفر، كنت أبحث عن وسيلة مأمونة للتخلص منها. وهكذا وقعت في الفموم السوداوية لسجين يحفر نفقاً للهرب، لكنه لايعرف أين يخفي الـتراب. كل مرة كنت أرتب فيهـا الحقيبـة، حال استبدال الفندق، أتسـاءل، ماذا أفعـل بهذه العلب العديدة الفارغة. أخيراً لم يخطر في خلدي حل أسهل من حملها في الحقيبة، حيث إنهم إذا ما فاجأوني وأنا أمزقها، فإن ذلك سيثير شكوكهم أكثر مما كانت عليه في حقيقة الامر. فكرت أن ألقيها في الارجنتين، لكن الامور سارت هناك بسرعة غريبة، لم تسنح لي الفرصة لفتح الحقيبة، الى أن وجب علي هنا فتحها في الحدود الجنـوبية، كنت خائفـاً وأنـا أشـاهد دهشة وشكوك الشرطة، عندما أسرعت في لملمة العلب المتناثرة على الارض.

قلت: ـ انها فارغة.

بالـطبـع، لم يصـدقـوا اقـوالي، بينها كان اكثرهم فتوة منهمكاً مع مسافرين آخرين، فتح الاكبر سنا العلب واحدة واحدة، وفحصها من الخـارج والـداخـل، وحاول أن يفك رموز بعض ملاحظاتي. عندها بدرت مني ومضة من الالهام. قائلاً.

ـ انها ابيات شعرية، تدور في خلدي احياناً فأدونها.

تابع فحصه لها بصمت، ثم تفرّس وجهي، حاول أن يقرأ فيه شيئاً عن لغز هذه العلب الفارغة.

قلت: ـ يمكنك أن تحتفظ بها.

قال: ـ وبماذا ستفيذني؟

عندها ساعدني في ترتيبها مرة أخرى، في الحقيقة ثم تحول عني الى السافر التالي، بقيت مشدوهاً، ولم يخطر ببالي أن القيها في القمامة هناك في الحال، امام الشرطة، وانما تابعت رحلتي اجرجرها معي حتى النهاية. عندما عدت الى مدريد، لم أدع ايلي أن تتلفها. شعرت بانني مرتبط بها، وقررت الاحتفاظ بها طوال ما تبقى لي من حياتي، فهي أثر عظيم للتجارب العديدة القاسية والتي ستغلي فيها الذاكره على النار الهادئه في مطابخ الذكريات.

«التقط صوره لمستقبل الوطن»

في بويرتو مونت، كان ينتظرني فريق التصوير الهولندي، ليس بسبب جمال الطبيعة الآخاذ هناك، وانما لما تمثله المنطقة في تاريخنا المعاصر، فقد كانت مسرحاً للنضال الدؤوب، وقد جرى قمع وحشي هناك، قامت به حكومة ادواردو فريي، بحيث تفرقت القلة القليلة من القوى التقدمية عن الحكومة، وهذا ساهم في تعجيل الدعوة للانتخابات، حيث انتصر سالفادور الليندي.

انتهى برنامج التصوير في بوير مونت والجنوب بشكل كامل، وغادر الفريق الهولندي البلاد عبر باريلوشي متوجها الى بوينس ايريس، يحمل معه كمية لابأس بها من المواد المصورة، حيث سيدعه لدى ايلي في مدريد. توجهت نحو تالكا في ليلة هادئة، بواسطة القطار، لم يحدث فيها مايستحق ذكره، باستثناء، دجاجة مشوية قدمت الى، وعادت بعافية دون أن أمسها الى المطبخ، حيث لم يكن بامكاني تقطيع اوصالها ولا حتى أن تخترق السكين جلدها المصفح.

استأجرت في تالكا سيارة، وتوجهت صوب سان فرانسسكو في قلب البايي دي كولشاغوا. هناك في ساحة دي لاس آرماس، لم يكن هناك مكان ولا شجرة، ولا حتى حجر في جدار لم يعد بي الى طفولتي. وعلى

وجهه الخصوص، مبنى الليسيو الهرم، حيث كتبت فيه اولى الاحرف جلست في مقعـد، التقط صوراً، افادتني فيما بعد في الفيلم. كانت الســاحة تمتلىء رويداً رويداً بلغط الاطفال الذين يدخلون المدرسة. بعضهم كان يتراءى امـام الكـامـيرا، آخـرون كانـوا ينتصبـون امام الاهداف التي اريد تصويرها، او يرفعون ايديهم. رقصت طفلة برهة، كما لو كانت محترفة، طلبت منها أن ترقص مره ثانية، لالتقط لها صورة مع جو ذلك المكان. فجأة تجمهر عدة أطفال وجلسوا جواري، وقالوا لي:

ـ التقط صوره، لمستقبل الوطن.

ادهشني سماع ذلـك، كانت الاجابة على سؤال من تلك الاسئلة العديدة التي دونتها على علب الجيتان. سأقول بأنه من المحال أن تجد في تشيلي أحداً، ليس لديه فكرة عن المستقبل. مع أن جيل الاطفال هذا لم يعرف بلداً آخر، الا ان لديهم صورة عن المستقبل.

كنت قد حددت موعداً للقاء الفريق التشيلي، في الساعة الواحدة والنصف من صباح ذلك اليوم على جسر ماكيس. وصلت في الموعد المحـدد على الجانب الايمن، ورأيت الكاميرات منصوبة على الضفة المقابلة. كان صباحاً شفافاً، معطراً بشذا الزعتر، شعرت بالطمأنينة، ولم اشعر كثيراً بانني منفيٌّ، كما كنت أحس في أي وقت مضى في مسقط رأسي، عنـدها نزعت ربطة عنقي وبدلة شخصي الآخر الانكليزية، وعـدت لأصبح أنا نفسي، بسترة وبسراويل كاوبوي، وبلحية، أثر يومين من سفري من بوينس ايرسي، كنت اعشق أن اشعر بعبق تركها دون حلاقـة، كانت علامة اضافية لهويتي المستعادة. لفت نظري أن المصور قد شاهدني من خلال المنظار، نزلت من السيارة، وعبرت الجسر ببطء كي افسـح له المجـال لتصويري، ومن ثم حييتهم، واحداً تلو

الآخر، كنت متحمساً لشغفهم ونضجهم قبل الاوان. بدوا اكبر من سنهم الحقيقي، خمسة عشر، سبعة عشر، تسعة عشر عاماً، كان لدى ريكاردو، اكبرهم سناً، والذي كان يقود الفريق من العمر واحد وعشرون عاماً، كان الاخرون ينادونه (بالعجوز). اكثر ما حرك جوانحي تلك الايام كان كسب فرصة التمتع معهم. هناك، وعلى حافتي النهر، انجزنا برنامج التصوير، الذي ابتدأناه في العاجل. علي أن اعترف بان اهدافي لذلك اليوم كانت تبتعد شيئاً فشيئاً عن الغرض الاساسي، وعلى وجه التحديد فقد راحت تتعلق بما يخص ذكرياتي، حيث دفعتني مجموعة من أقراني الى الماء عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، لأتعلم السباحة بالقوة.

وفي مجرى عملنا، عدنا للهدف الرئيسي للرحلة، الى وادي سان فرناندو وهي منظمة زراعية عريضة، تحول الفلاحين ولاول مرة في تاريخهم الى احرار، في زمن حكومة الوحدة الشعبية، والذين كانوا دوماً مغلولين كأقنان. قبل ذلك كانت الاوليفارشيه الزراعية، والتي تقررنتائج الانتخابات باصواتها واصوات الاقنان التابعين لها. وخلال حكومة ادواردو فريي الديمقراطية المسيحية، نظم اول اضراب شامل للفلاحين، وقد شارك في ذلك سالفادور الليندي بشخصه، وما أن أصبح في الحكومة حتى حدد ملكية الاراضي، ونظم الفلاحين في تعاونيات نشطه.

الآن يقع وكرمز للتخلف، في الوادي المركزي، بيت بينوشيت الصيفي، لم استطع ترك ذلك المكان، دون أخذ صورة عن تمثال دون نيكولاس بالاثيو مؤلف (السلالة التشيلية) وهو كتاب فريد من نوعه، صور فيه كاتبه بان التشيليين الأصليين، الذين سبقوا الهجرات الكبيرة، الباسكية، الايطالية، العربية، الفرنسية، الألمانية، هم من سلالة

الهلنيين الاغـريق الكـلاسيكية بشكـل مبـاشر، وهم من اختـارهم التاريخ، ليسيطروا على امريكا اللاتينية، ولأجل أن يسود طريق الحق وخـلاص العـالم. ولدت في مكان قريب جداً من ذلك، وطوال فترة الصبا، اعتدت أن أرى التمثال مرات عدة في اليوم عندما كنت أمر في طريقي الى المدرسة أيامها لم يوضح اليَّ أحد عما كان عليه، اقتلعه بينو شيت من مكانه، وقد كان شديد الاعجاب بنيكولاس بالاثيو ونصبه في موضع آخر، في قلب سانتياغو، بالكاد انهينا الجولة مع حلول الظلام، فقد كان علينا أن نقطع مائة وأربعين كيلو متراً للعودة الى سانتياغو قبل أن يحل موعد حظر التجول، ذهب الفريق في طريقه باستثناء ريكاردو، الذي مكث معي على مقود السيارة، وقمنا بجولة طويلة حتى البحر، نحدد أماكن التصوير لليوم التالي، بينما كنا منهمكين في هذا، اجتزنا أربعة حواجز، بدون أدنى عقبة. بعد أن اجتزنا الأول، نزعت ملابس ميغيل ليتـين، مخرج السينـما، احتياطـاً، وعـاودت ارتـداء شخصيتي الاورغـوائية، أم اشعـر كيف مر الوقت واكتشفنا فجأة انها اصبحت الثانية عشرة ليلاً ـ مضى نصف ساعة على حظر التجول ـ وعشنا لحظة من الفـزع، مرتعبـين من الاصـطدام مع حاجز، عندها اشرت على ريكاردو أن يخرج عن الطريق الرئيسية، ودلفت في طريق ترابي تذكرته كما لو كنت قطعتـه بالامس، وقلت له أن يتجـه يساراً، حيث يقطع الجسر، ومن ثم يميناً عبر زقاق غير مرئي، حيث كانت تسمع جلبة حيوانات مستيقظة في العتمة، وأن يطفىء أنوار السيارة ويتابع في طريق رملي ذي انحناءات ضيقة، هابطاً وصاعداً، وفي نهاية الطريق دخلنا قرية نائمـة كانت كلابها الضالة تنبح على كل حيوانات الافنية، وفي الجانب الآخر من القرية، توقفنا أمام بيت والدتي. حتى تلك اللحظة لم يدر في خلدي ولا خلد ريكاردو، بان ذلك كان مدبراً. اقسم بانه لم

يكن هكذا. وعندما شعرت باننا نخترق منع التجول، الشيء الذي تبــادر لي، كان ان نختبىء في الخــلاء بعيداً عن الـطريق حتى يحل الصباح، حيث انه حتى نصل سانتياغو فقد بقي امامنا أربعة حواجز للشرطة. عندما تركنا الطريق فقط، تعرفت على طريق صباي، ونباح الكلاب على الطرف الآخر للجسر. ورائحة الرماد المنبعث من المطابخ الدافئة، ولم أستطع كبت نبضاتي التي لاتتوقف تستحثني أن أفاجىء أمي.

«علك صديقاً لأبنائي»

لازالت قرية بالميا، بسكانها الأربعمائة، على ماكانت عليه، عندما كنت طفلاً. وصل جدي والد أبي - الفلسطيني - الذي ولد في بيت ساحور- وجدي والد أمي - اليوناني كريستوس كوكوميديس، في أوائل هذا القرن، في طلائع موجة مهاجرة، ووضعوا حداً لترحالهم في أنحاء سكة الحديد، والتي كانت مصدر حياة بالميا الوحيد في ذلك الزمان، عندها كان ينتهي خط القطار، والذي يربط الآن سانتياغو مع الساحل. حيث كان ينتقل المسافرون، أو ينزلون البضائع القادمة من البحر، أو ترسل للبحر، وهذا مانشط التجارة العابرة وصنع في ذلك المكان ازدهاراً مؤقتاً.

فيما بعد، عندما استطالت سكة الحديد حتى البحر، حافظت المحطة على كونها موقفاً إجبارياً للقطارات، حتى تزود بالماء للمحركات، حيث تتوقف عشر دقائق، وأحياناً كان يطول التوقف ليستغرق يوماً بأكمله، كانت تمر القطارات مولولة، حيث دار ماتيلدا - جدتي العربية - تشعر عن وصولها. لم تكن القرية في يوم أكبر مما هي عليه اليوم: شارع طويل تناثرت حوله البيوت، وطريق آخر قصير، تشرف عليه عدة بيوت، في الأسفل يوجد محل شهير يدعى «لاكاليرا»، حيث

كانت كل عائلة تصنع نبيذاً رائعاً، كانت تقدمه لأي كان ـ هناك، جرعة، ليحكم أيه الأفضل. كان هكذا. ومن ثم تحولت (لاكاليرا) إلى فردوس للثملين الآتين من أنحاء البلاد.

حملت ماتيلدا معها أوائل المجلات المختارة إلى القرية، وكانت مولهة جداً بها وتشبع نهمها منها، كانت تقدم حديقتها التي أمام البيت، لأجل عروض السيرك، والمسرح المتجول، وأحياناً كان يعرض هناك بعض الأفلام، والتي كان يأتي بها المتنقلون بين الفينة والفينة، وحيث أعربت تلك عن أحلامي منذ أن شاهدت أول الأفلام، عندما كان عمري خمس سنوات، كنت جالساً في حضن الجدة، كان الفيلم لجينو بيبادى برافنتي، الذكرى التي أحفظها عنه كانت تثير الذعر، حيث مرت أعوام عدة قبل ان أعرف كيف تُخبب الخيل، وتطل تلك الوجوه الضخمة على شرشف أبيض، معلق بين الأشجار. وصلت أنا وريكاردو إلى دار جدي اليوناني، حيث كانت تعيش والدتي كريستينيا كوكوميديس، وحيث عشت فترة المراهقة، تم تشييدها في ١٩٠٠، ولازالت تحتفظ بطرازها الريفي التشيلي التقليدي، حيث الباحة الواسعة التي تطل عليها الغرف، بممراتها الضيقة المظللة، وغرفها من الحجر، وبمطابخها الواسعة، وفي زاوية منعزلة منها توجد اسطبلات الأغنام، والخيل.

نسمي المكان الذي تقع فيها، لوس نارانخوس*، فتحس دائمًا بشذا البرتقال الحمضي، وهناك نباتات الزينة وكل صنف من الزهور البراقة. لاأستطيع وصف شعوري، عندما وجدت نفسي هناك، لدرجة أنني نزلت من العربة قبل أن تتوقف، ودخلت في الممرات المقفرة، قطعت الباحة في الدياجير، أول من خرج لاستقبالي كان كلباً ضالاً، تعلق بين ساقي، لكنني تابعت سيري، دون أن يتناءى إليَّ أي أثر لوجود البشر،

* أشجار البرتقال الحمضي (النارنج)

عند كل خطوة، كنت استل من الذكرى أشياء غابت، ساعة في مساء، رائحة منسية، دنوت في ختام مشوار طويل من باب الصالة والتي بالكاد كانت مضاءة بضوء شاحب، حيث كانت هناك أمي. كان المنظر غريباً، الصالة كبيرة جداً، ذات سقف عالٍ، وبجدران ملساء، لم يكن هناك الكثير من الاثاث سوى مقعد جلست فيه أمي، وقد أدارت ظهرها للباب جوار الموقد، ومقعداً آخر كان يجلس فيه أخوها، خالي بابلو. كانوا جالسين بصمت، كلاهما دون حراك يحدقان في اتجاه ما، هادئين، كما لو كانا يشاهدان التلفزيون، في الحقيقة كانا ينظران الى الصالة. تقدمت نحوهما دون أن أحدث ضجة، لم ينتبها الى وقع خطواتي فاجأتهما: -

- حسناً ولكن لماذا لا يرحب أحد هنا بالقادم، ويا للخسارة، عندها نهضت أمي قائلة

- علك صديق لأبنائي، دعني أعانقك.

لم يشاهدني الخال بابلو منذ أن تركت تشيلي قبل اثني عشر عاماً، بالكاد تحرك من مقعده.

كانت والدتي قد شاهدتني في ايلول من العام الغائب في مدريد، لم تكن لتعرفني حتى بعد أن نهضت ودنت مني، لهذا شددت على أكتافها، وأخذت أهزها علها تتذكرني. قلت: - لكن حدقي في جيداً، يا كرستينيا، انظري في عيني، إنني أنا. عاودت النظر في عيني علها تكتشف شيئاً آخر، لكنها لم تستطع أن تشخصني.

قالت: - لا، لا أعرف من تكون.

قلت: - لكن، كيف لا تعرفيني، قلت وأنا أقهقه ضاحكاً: - أنا ابنك ميغيل. عندها عادت تنظرني مجدداً، اصطبغ محياها بشحوب قاتل.

قالت: - آه، أشعر بالدوران، سأسقط.

كان علي أن أحيطها بذراعي، حتى لا تسقط أرضاً، بينما كان الخال بابلو مذهولاً مثلها لهول الصدمة.

قال: هذا آخر ما كنت أنتظر رؤيته، الآن أستطيع أن اسلم الروح بسلام، حاول أن يدنو ليحتضنني. كان يبدو كعصفور، شعر رأسه ناصع البياض.

وقد التف ببطانيه، رغمًا عن أنه يكبرني فقط بخمسة أعوام، تزوج، وانفصل عن زوجته، منذ ذلك الوقت انتقل ليحل في بيت والدتي. دائمًا كان وحيداً، وعجوزاً منذ طفولته.

قلت: ـ ليس الى هذه الدرجة يا خالي، كيف ستفعلها بنا وتموت الآن

ـ هيا أحضر زجاجة نبيذ كي نحتفل بالعودة.

قالت أمي وقد قطعت علينا، كعادتها فاجأتني بما كنت لا أحلم به:

ـ عندي المستول جاهز*.

لم أصدق ذلك، حتى رأيته في المطبخ، يطبخ المستول فقط في البيوت اليونانية، في المآدب الكبيرة وفي المناسبات، لأن تجهيزه يتطلب تحضيراً مجهداً. وهو طهاء مع الخروف، والحمص وكريات صغيرة من دقيق الحنطة، يشبه الكسكسي العربي، وكانت أمي تحضره لأول مرة ذلك العام وبدون سبب. فقط بناءً على ايحاءات صرفة. أكل ريكاردو معنا ومن ثم انسحب للنوم. بدون شك حتى يتركنا في راحة مطلقة. بعده بقليل انسحب خالي، تابعنا الحديث أنا وأمي حتى مطلع الفجر. كنا نتبادل الحديث كأصدقاء، لأن أعمارنا كانت متقاربة، فقد تزوجت والدي عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، وانجبتني بعد عام من ذلك، لدرجة أنني اذكرها كيف كانت في العشرين من عمرها،

* أعتقد أن الراوي قد أخطأ الظن فالمستول هو المفتول بلهجة وسط وجنوب فلسطين. فاهالي بيت ساحور يطلقون على الكسكسي المغربي والمغربية في بلاد الشام وشمال فلسطين، المفتول. Almastol

فائقة الجمال، رقيقة، وكانت تلعب معي كما لو لم أكن بابنها وإنما لعبة من لعبها المصنوعة من القماش.

كانت متوقدة الشعور لعودتي، لم يرق لها كثيراً طريقتي الجديدة في الملبس، دوماً كانت معجبة بملبسي الذي تعهده. قالت لي:

«تبدو كراهب. لم أبين لها سبب تنكري ولا حتى أوضاعي. وهدف دخولي تشيلي فضلت أن يبقى ذلك على هامش مغامرتي، وحتى لا أجلب لها مصائب هي غنية عنها. وفوق ذلك أن تبقى خارج الموضوع الذي أقوم به. قبل أن يبزغ الصباح، امسكت بيدي. وسارت بي عبر الفناء دون أن تفصح لي، وحملت في راحة يدها شمعة مضاءة. كما في روايات ديكنز. وقدمت لي أكبر مفاجأة في الرحلة. ففي نهاية الباحة، كان هناك الاوستديو الذي كنت املكه، في بيتي في سانتياغو قبل فراري الى الخارج، كما تركته، وكل شيء كان بداخله.

بعد أن اقتحم العسكر الدار آخر مرة، وتوجب عليَّ الرحيل الى المكسيك مع ايلي والاطفال، تعاقدت امي مع صديق معماري، قام بفك الاستوديو قطعة قطعة. ثم عاد ليركبه كما كان عليه في الدار العائلية القديمة في بالميا، كان بنفس الحالة التي تركته فيه، بنفس الفوضى وعدم الترتيب كان فيه كل ما يخصني من أوراق في حياتي، واعمالي المسرحية ايام الشباب، وبرامج سينمائية كاملة، وجداول بفصول سينمائية، الهواء الذي كنت اشتمه له بنفس اللون والرائحة حتى كأنني شعرت بنفس التاريخ ونفس الساعة التي رأيت فيها الاستوديو لآخر مرة.

فجأة غمرتني هزة جازفة من الانفعالات. لحظتها لم أستطع أن أحدد فيما إذا احضرته أمي ورتبته. حتى لا أشعر بالغربة في بيتي السابق إذا ما عدت مرة أخرى، أم لأجل أن تتذكرني دوماً إذا ما مت في المنفى.

الفصل العاشر

نهاية سعيدة
بمساعدة الشرطة

كانت العودة الى سانتياغو هذه المرة محفوفة بالمخاطر فالانطباع كان جلياً بأن الحصار حولنا قد بدأ يضيّق الخناق أكثر من السابق. قمع رجال الأمن بقسوة دموية «مسيرة الجوع»، وقد انهالت الشرطة بالضرب على بعض العناصر من فريقنا، وتحطمت الكاميرا. لأحد الاشخاص الـذين اعتـادوا علينـا، كانت في محلهـا، خروجنا، حتى أن كلمنسيا ايساورا كانت على قناعة بإننا دلفنا الى عرين الاسد كقديسين ابرياء. وصلت محاولات جس امكانية لقاء الجنرال المعارض الى طريق مسدود، دوماً بهذا الرد: «اعد الاتصال غداً» هذا ما كانت عليه أحوالنا، عندما ابلغنـا الفـريق الايطالي بأن تصريح التصوير في قصر المونيدا اصبح جاهزاً، لليوم التالي في الحادية عشرة صباحاً.

ساورنـا الاعتقاد بأن هناك مكيدة قاتلة وراء ذلك، كان لدي الاستعداد للمجازفة رغمًا عن المخاطر، كانت مسؤولية كبيرة ان أعطي

امـري للفـريق الايطالي بالـدخـول الى مكـاتب الرئاسة، اظن ذلك ادخالهم في المصيدة كالفئران، بالنسبة لهم، فقد استعدوا للقيام بذلك وتحت مسؤوليتهم، وهم يعون جيداً مخاطر ذلك. لم يكن هناك مبرراً لبقاء الفريق الفرنسي في سانتياغو لفترة أطول، لهذا اجتمعت بهم على جنـاح السرعـة، واشرت عليهم بأن يخرجوا من تشيلي في اول طائرة ومعهم كافـة المواد المصورة آنذاك، ليرسلونها الى مدريد. رحلوا ذلك المساء. وفي نفس الساعة التي كان الفريق الايطالي تحت قيادتي يصور في مكتب الجنرال بينوشيت، قبل الذهاب الى مندوزا، سلمت فرناندو الرسالة الموجهة الى محكمة العدل العليا والتي كنت احملها في حقيبة يدي منـذ عدة ايام دون ان اقـرر ارسـالها، وقلت له ان يسلمها في الحال وبشكـل شخصي، وهـذا ما فعله. واعطيته ايضاً ارقام الهواتف التي اعطتني اياها ايلينا كي نتصل بها في الاحوال الطارئة الخطرة.

تركني في تمام الساعة الحادية عشرة الا ربعاً في زاوية بروفيدنشا، حيث انضممت الى الفريق الايطالي، لنشكل فريقاً متكاملاً، وتابعنا معـاً طريقنـا الى قصر المـونيدا هذه المرة تركت جانباً شخصية الناشر الاوروغوائي، وعدت لارتدي سراويل الكابوي وسترة فرو مبطنة بجلد الارنب من الداخل.

كنت قد قررت في آخـر ساعـة المشـاركة معهم، حيث كانت غراسيا الصحفية واوغـو المصـور، وغيدو مهندس الصوت، فتشوهم بشكل دقيق. أما مساعدوهم، فبالكاد طلبوا منهم تحديد هوياتهم، رغمًا عن ان اسماءهم كانت موجودة ايضاً في التصريح، هذا اسهم في ايجاد حل لوضعيتي: حيث دخلت كمسـاعد للاضاءة احمل معي كابلات وكشافات ضوئية. قمنا بالتصوير طوال يومين، بكل هدوء، بتكنيكيه رفيعه، كان يقوم علينا كأدلة، ثلاثة ضباط، شبان ودمثو الخلق، حتى

انهم كانوا احياناً يهبون لمساعدتنا. وانهينا كل ما يتعلق بتصوير العمارة وبحيث لا تثار الشكوك حول غرض الفيلم، كانت غراسيا على جاهزية عالية، ولديها من المعلومات حول تويسكا والفن المعماري الايطالي في تشيلي ما يكفيها للتمويه عن المهمة، حتى الجنود كانوا ايضاً مؤهلين، يحدثونا بكل حذر، حول ما يمثله وتاريخ كل مكان في القصر، وحول الطريقة التي اعيد فيها ترميمه، وعلاقة ذلك مع المبنى الداخلي، كانوا يناورون وباعجاز، ليتملصوا من الحديث عما يتعلق بـ١١ ايلول ١٩٧٣ الحقيقة ان الترميم تم وبشكل كبير على نفس المخططات الاصلية، سوى انهم في بعض الاماكن فتحوا ابواباً، أو سدوا اخرى، هدموا جدراناً، وغيروا بلاط المكان، والغوا مدخل (موراندي ٨٠) حيث كان الرؤساء يستقبلون فيها زائريهم الخاصين. التغييرات كانت عديدة، بحيث انه لو دخل القصر احدهم وكان يعرفه، فلن يستطيع ان يتوجه فيه الى حيث يريد من جديد. مر الضباط الذين الذين كانوا برفقتنا ويشرفون على عملنا، في لحظة سيئة، عندما طلبنا منهم ان يظهروا لنا «وثيقة الاستقلال الاصلية» والتي كانت خلال اعوام عدة محفوظة في صالة مجلس الوزراء وكنا على بينة بانها اتلفت خلال القصف. رفضوا ذلك قطعياً، وانما وعدونا بان يحصلوا لنا لاحقاً على تصريح خاص لتصويرها، دوماً كانوا يقولون لاحقاً ولاحقاً حتى فرغنا من التصوير.

بيد انهم لم يستطيعوا ان يشيروا لنا، اين كانت خزانة الوثائق الخاصة بدون دييغو بورتاليس، والاثار العديدة التي كان الرؤساء السابقون يتركونها طوال الاعوام، لاجل عمل متحف تاريخي صغير، لكن النيران اتت عليه، ربما نالت كذلك تماثيل كل الرؤساء، ابتداءً من أو هيجينز، نفس المصير، ربما، وهذا طبيعي ان تكون الحكومة العسكرية قد قامت بازالتها من مكان عرضها حتى لا يشعرون بانهم

مضطرون لوضع تمثال سالفادور الليندي ايضاً. الانطباع الذي يؤخذ، بشكل عام، بعد التجوال في انحاء القصر، ان كل شيء قد تغير بشكل عميق، والهدف الوحيد من وراء ذلك هو طمس أي أثر للرئيس المغدور.

في اليوم التـالي للتصوير في لامونيدا، كما هو الحال في الحادية عشرة صباحاً، فجأة شعرنا برجه في ذلك الجو، وشعرنا بضجة الاحذية العسكرية المتراكضة والاسلحة. تبدل مزاج الضابط الذي كان يرافقنا فجأة، وامرنا وبعنف ان نطفىء الاضواء وان نوقف التصوير. لم نعرف ما الذي كان يحدث، حتى بدا لنا الجنرال اوغوستو بينوشيت ماراً بزيه العسكري، متبختراً، يسير الى حيث مكتبه ويرافقه مساعد عسكري وشخصان مدنيان. كان مشهداً لحظياً، لم يدع لنا مجالاً في شيء، وقريباً جداً منا دون ان يتلفت الينا، سمعناه بكل وضوح يقول اثناء مروره :-

بالنسبة للنساء، لا يجب عليك ان تصدقهن حتى لو قلن الحقيقة.

تسمر أوغو في مكانه، واصبعه متشنج على زناد تصوير الكاميرا كما لو شاهد مصيره يمر من امامه. قال لنا لاحقاً «لو ان احدهم فكر في قتله تلك اللحظة، لتيسر له ذلك» لا أحد منا شعر بحافز للاستمرار في التصوير ذلك اليوم، رغمًا عن انه بقيت امامنا ثلاث ساعات من العمل.

«مجنون في المطعم»

سريعـاً ما ان انتهينـا من المـونيدا، حتى جمع الفريق الايطالي امتعته مع المواد المصورة وخرج من البلد دون أي تعويق. وهكذا تم تصوير اثنين وثلاثين الفا ومئتي متر من الافلام وكان خلاصتها النهائية، بعد ستة اشهر من التحميض والطبع في مدريد، ان اختصرت في اربع ساعات لاجل التلفزيون، وساعتين للسينما.

بقيت انا وفرانكي أربعة أيام أخرى. علمًا ان البرنامج الاصلي قد انتهى، كنت على امل ان اتمكن من الاتصال مع الجنرال الكتريك. خلال يومين، كنت اذهب كل ست ساعات الى نفس الكافتيريا. كما أشاروا علي بالهاتف. كنت اجلس. وانتظر دون استعجال، أقرأ مرة نسخة الخطوات المفقودة. ذلك الكتاب الذي يشجعني في التغلب على الخـوف أثنـاء السفـر جواً. أخيراً بدت وسيلة الاتصال المنتظره، فتاة ملائكية في العشرين من عمـرهـا، يبـدو عليها الدلال، ترتدي زي مدارس الماسونية، وصلت في الموعد ما قبل الاخير، اسرت الى بكلمة السر للخطوة القادمة، المطعم المشهور شزهنري، في بورتاليس، حيث يتوجب علي ان أتواجد هناك هذا المساء، ابتداء من الساعة السادسة، ومعي نسخة من المركوريو ومجلة أخرى تتعلق بالتاريخ.

* المركوريو: اضخم صحيفة تشيلية تصدر منذ اكثر من قرن ونصف

وصلت متأخراً عن الموعد بقليل، حيث ان التاكسي لم يجد طريقاً بين المتظاهرين في الشوارع.

كانت قد اندلعت مظاهرات الشارع السلمية من جديد، كتعبير عن مقاومتها للدكتاتورية. اندلعت على جذور تضحية سيباستيان اسيفيدو في كونسبسيون، بينما كانت عربات الشرطة تحاول تفريقهم بواسطة خراطيم الماء المضغوط. مكث اكثر من مائتي متظاهر مبتلين حتى العظام عاجزين عن الحراك، لينشدوا اشعاراً في الحب بينما لازلت مشدوهاً لذلك التعبير العظيم، جلست في البار على كرسي، واخذت أقرأ افتتاحية المركوريو*، كما أشارت علي طالبة المدرسة، وانا انتظر احدهم ليقترب مني ويسألني «أكثيراً تهم حضرتك صفحة الافتتاحية؟» كان علي أن أرد عليه بالايجاب. «لانها تحوي معلومات ذات نمط اقتصادي، تهمني كثيراً في مهنتي». عندها في الحال سأخرج من المطعم، وسأجد سيارة على الباب تنتظرني. قرأت صفحات الافتتاحية ثلاث مرات كاملة، عندما ضربني أحدهم من الخلف بمعصمه على خاصرتي، قلت لنفسي «هاهو» نظرت. كان رجلاً في الثلاثين من عمره، عريض المنكبين. بطيء الحركة، ثم تابع خطاه نحو التواليت. فكرت في أن اشارته، كانت أن اتبعه حتى هناك، لكنني لم افعل ذلك، فالاشارات السرية كانت ناقصة حتى الآن، تابعت ارقب التواليت، حتى عاد من جديد ومن حيث مر سابقاً، وضربني ضربة اخرى كتلك الأولى. عندها استدرت وشاهدت وجهه. كان انفه أشبه بالزهرة، وشفتاه ممزقتين، وحاجباه مشطوبين. قال لي

ـ مرحباً، كيف شعرت؟

قلت له: رائع، رائع جداً.

جلس على الكرسي المجاور، وتحدث معي بتودد. قال:

أتذكرني؟

أجبته :ـ طبعاً يا رجل. وحتى لا ينقطع الخط بيننا تابعت الموجة : كيف لا .

هكذا تابعنا بضع دقائق، كنت انظر الى الجريدة وبطريقة ظاهرة لعينية، حتى يتذكر الاشارات السرية. لكنه كان في وادٍ آخر. مكث جواري، يحدق بي :

قال :ـ حسناً، لماذا لا تدعوني الى فنجان من القهوة؟

ـ على الرحب والسعة يا رجل.

طلبت من الجرسون قهوة لشخصين، لكن هذا وضع واحداً على الطاولة.

قلت: طلبت اثنين، واحد للسيد.

قال الجرسون: آه ـ نعم ـ بعد لحظة سنقدمه.

ـ ولكن لماذا لا تقدمه الان وفي هذه اللحظة؟

قال: نعم. . نعم سنقدمه

لكنه لم يقدمه، مازاد في استغرابي ان ذلك لم يبدو يثر غرابه الرجل، للرجل زاد تشوشي من الوضع مما اثار اعصابي، وضع يده على كتفي وقال:

اعتقد ان حضرتك لاتتذكرني ها!!

في هذه اللحظة اتخذت قراري بالخروج

قلت له: انظر، حتى اكون صريحاً معك انني لااذكرك

اخرج من محفظته قصاصة جريدة يبدو انها مرت على ايدٍ عديدة، مصفرة، ووضعها امام عيني قال لي: انا هنا

عندها عرفته كان بطلاً للملاكمة قديمًا، مشهوراً جداً في المدينة وذلك لفقدانه قدراته العقلية اكثر من امجاده الغابرة في الملاكمة. تهيأت

للرحيل قبل أن أصبح محطاً للانظار طلبت الحساب قال: وقهوتي؟؟

قلت: تناوله في مكان آخر، سأعطيك نقوداً.

قال: وكيف تعطيني نقوداً يعتقد حضرتك بان لاكرامة لي لانهم ضربوني ضربة قاضية اطعموني المر، لاتتعالى كثيراً عليَّ

كان يصرخ لدرجة أن كل النظرات في المحل تحولت الينا عندها امسكت بمعصمه الضخم، وابعدته بأيدي الحطاب هذه والتي لحسن الحظ ورثتها عن ابي

قلت له: فليبق حضرتك هادئاً، اتفهمني؟ تفرست في عينيه ـ ولا كلمة بعد الان، حالفني الحظ، انه صمت بنفس السرعة التي انفجر بها، دفعت الحساب بسرعة وخرجت، كان الليل صقيعاً، وذهبت الى الفندق في أول تكسي صادفته، في صالة الاستقبال وجدت رسالة مستعجلة من فرانكي: اخذت حقائبك الى الـ ٧٢٧. لم اكن بحاجة الى اكثر من ذلك. الـ ٧٢٧ كان الرقم السري الذي بيني وبين فرانكي والذي كنا نعرف به منزل كلمنسيا ايساورا، كان حمله للحقائب الى هناك والرحيل من الفندق باقصى سرعة يعني اشعاراً نهائياً بان دائرة الحصار حولي قد اغلقت نهائياً، اتجهت صوب بيتها، وانا اتنقل من تاكسي لآخر، واغير اتجاهاتي في كل مرة، يتراءى لي ذلك، وجدت كلمنسيا ايساورا في قمة المتعة، وهي تشاهد فيلماً لهيتشكوك في التلفزيون.

«إما ان تذهب او تغرق»

كانت الملاحظة التي تركها فرانكي لديها هامة. ففي هذه الليلة قدم رجلان يرتديان زياً مدنياً وتقصى عنها، اخبر البواب ذلك لفرانكي، دون أن يعطي ذلك اهمية، حيث انها بالنسبة له، امور روتينية وخاصة في ظل خطر التجول، الغى فرانكي الحجز في الفندق دون ان يبدي تخوفه، وطلب من البواب ان يطلب له تاكسي، كي يذهب للمطار الدولي، وصافحه بحرارة ودس بيده «بقشيش» لن ينساه. لم يدخل ذلك في خلد البواب، فقال: «استطيع ان ارتب لكم حجزاً في أي فندق وفي المكان الذي لايصلكم اليه احد ابداً». تجاهل فرانكي ذلك، وتظاهر بعدم الاكتراث لذلك. كانت كلمنسيا ايساورا قد جهزت غرفة النوم، وصرفت الخادمة والسائق، حتى لايسمع او يرى احدهم شيئاً. بينما كانت في انتظاري كانت قد جهزت عشاءً فاخراً مع الشموع، ونبيذاً من افخر الانواع، على انغام موسيقى براهام، موسيقارها المحبب، طالت الجلسة على العشاء حتى وقت متأخر، وهي تتحدث عن مغامراتها، تشاركها يداها بانفعال كما لو كانت تطلب النجاه من الغرق في مستنقع، شعرت بأنها قضت حياتها سدىً في تربية اطفالها ليصبحوا من الذوات وأخيراً لتنتهي وهي تنسج جوارب صوفية، وهي تشاهد برامج التلفزيون، جاء ذلك متأخراً في الثانية والسبعين من عمرها، اذ ان قناعتها تبدلت، وترسخت تجاه الايمان بالنضال المسلح، تتمنى ان تحس بنشوة العمل البطولي.

قالت: افضل أن يمزقني الرصاص في اشتباك مع العسكر في الشوارع على أن أموت في سرير وخاصرتاي مزهقتان.

وصل فرانكي صباح اليوم التالي، وقد استأجر سيارة أخرى جديدة، كان يحمل رسالة هامة، وصلتني من ثلاث طرق مختلفة «اذا لم تذهب، فستغرق» لامناص امامي من الاختفاء عن مسرح العمل، او الاستمرار، كان خياراً صعباً، كان يحمل فرانكي نفس وجهة النظر، وكان قد احضر بطاقتي سفر بالطائرة، التي تقلع هذا المساء الى مونتيفيديو، في الليلة السابقة انهيت فصل العمل النهائي، فقد اوقفت اول فريف تشيلي عن العمل واعطيته تعليمات بان يوقف عمل الفرق الأخرى، وسلمت الى رسول من المقاومة، أخر ثلاث علب افلام مصورة، حتى يخرجونها من البلاد في اقرب فرصة ممكنة، انجزوا ذلك بشكل جيد، بحيث ماإن وصلنا الى مدريد، حتى اتتنا الى البيت تحملها راهبة شابة تثير الاعجاب، تطلق على نفسها اسم سانتا تيريزادي خيبسوس» أبت البقاء لتناول الطعام، حيث كانت امامها ثلاث مهام سرية أخرى، قبل أن تقفل راجعة الى تشيلي نفس تلك الليلة.

منذ فترة قليلة، اكتشفت بمحض الصدفة، بانها نفس الراهبة التي ساعدتني في الاتصال في كنيسة سان فرانسيسكو في سانتياغو. انا كنت من تقاعس عن الذهاب عندما كان هناك احتمال عندها لمقابلة الجنرال الكتريك ومن ثم عاودت الاتصال والذي عاد لينقطع في المطعم، لكن وبينما كنا نتناول الفطور في بيت كلمنسيا ايساورا، قمت بالاتصال مجدداً، طلب مني نفس الصوت النسائي ان اتصل بها مرة أخرى في وقت لاحق بعد ساعتين من أجل أن تعطيني رداً قاطعاً. إذاً أولاً عندها قررت بأنه اذا كان بامكاني الاتصال به قبل اقلاع الطائرة

بدقيقة فسوف ابقى في سانتياغو دون أن أعير اهتماماً لما سيحدث معي. اما اذا كان الرد بالنفي، عندها سأتوجه الى مونتيفيديو. المقابلة كانت بالنسبة لي موضوع عظيم وآلمني في روحي لو انني كرست نفسي لها بدلاً مما عملته في الستة اسابيع بكل حسناتها وسيئاتها في تشيلي.

كانت النتيجة نفسها في المكالمة التالية، كان عليَّ ان اكرر الاتصال مرة أخرى خلال ساعتين، كان امامي الاحتمالان قبل ان تقلع الطائرة. نهضت كلمنسيا ايساورا لتعطيني مسدساً كان لزوجها.

دوماً كان تحت الوسادة، لاجل ارهاب اللصوص، تمكنا من اقناعها بان ذلك لم يكن تصرفاً عقلانياً. ودعتنا والدموع تغسل وجهها، لااعتقد ان ذلك كان بسبب الرحيل، وانما لانها ستعيش دون مغامرات جديدة. كم كنت سعيداً وانا اترك هناك شخصي الآخر. وضعت القضايا الشخصية الضرورية في حقيبة يدي، وتركت حقيبة السفر عند كلمنسيا ايساورا مع البدلات الانكليزية، وقمصان الحرير الثمينة المحاك عليها اوائل احرف الاسم، والربطات الايطالية المزينة باليد وكل مايتعلق برجل الصالات ذلك، اكثر رجل مقتة في حياتي، مااحتفظت به له كان ماكنت احمله دائماً، ونسيته متعمداً بعد ثلاثة ايام في فندق في ريودي جانيرو. قضينا الساعتين التاليتين نشتري هدايا تشيلية لابنائي واصدقائي في المنفى. اتصلت بالهاتف من كافتيريا قريبة على ساحة دي لاس آرماس للمرة الثالثة، وكان نفس الرد: عد للاتصال خلال ساعتين، لم تعد ترد عليَّ تلك المرأة، وانما رد رجل اعطاني نفس الاشارة السرية المتفق عليها وحذرني بأنه اذا لم التزم وانضبط بالاتصال في المرة القادمة فانني لن اعثر على رد قبل اسبوعين. وهكذا ذهبنا الى المطار، حتى نتصل من هناك للمرة الأخيرة.

كانت المواصلات مقطوعة بسبب اشغال وحفريات في اماكن

مختلفة، كانت الاشارات التوضيحية مشوشة وغامضة، حيث صادفنا عدة تحويلات واحياناً طرقاً مسدودة. كنت انا وفرانكي نعرف بشكل جيد الطريق القديم لمطار لوس ثيريوس ولكننا لانعرف طريق بوداهويل ولا اعرف كيف وجدنا انفسنا ضائعين في حي لمجمعات صناعية قمنا بعدة دورات، نبحث فيها عن مخرج ايا كان اتجاهه لم ننتبه الى اننا كنا نسير في الاتجاه المخالف، حتى واجهتنا في الطريق حافلة للشرطة.

نزلت من السيارة واعترضت سيارتهم. فرانكي من جهته، فقد تفنن بالحديث معهم دون ان يعطيهم مجالاً للشك في اقاويله، قص عليهم حكاية مستعجلة وخرافية حول عقد قدمنا لابرامه مع وزير المواصلات بحيث ننشىء شبكة للتحكم بالمرور في البلاد عبر الاقمار الصناعية، ووضعهم بصورة التبعات المأساوية لفشل البرنامج اذا مااستطعنا اللحاق وخلال نصف ساعة، الطائرة المتجهة الى مونيتيفيديو، نهاية المطاف تلهف الكل لايجاد مخرج يقودنا الى اخذ خط الاوستراد المتجه الى المطار، حيث قفز الشرطيان الى حافلتهم، واشاروا علينا بأن نتبعهم.

«فر الاثنان عند البحث عن الفاعل»

وصلنا المطار وقد اجتزنا الطريق بشكل مخالف، خلف اشارات الخطر، والاضواء المتوهجة المنبعثة من سيارة الشرطة، والمنطلقة بسرعة تتجاوز المائة كيلو متر في الساعة ركض فرانكي نحو كاونتر هرتز. لتسليم السيارة المستأجرة، وركضت نحو الهاتف اتصلت بنفس الرقم للمرة الرابعة في ذلك اليوم، كان الخط مشغولاً، اعدْت الاتصال مرتين، في الثالثة اجابتني المرأة، حيث كنت قد جاوزت الوقت المحدد الاتصال، تلك المرأة لم تحدد الاشارات السرية المتفق عليها، اغلقت السماعة وهي منزعجة، كررت الاتصال في الحال، عندها اجابني نفس صوت الرجل في المرات السابقة، وكان في هذه المرة دافىء وهادىء، ولكن بدون أمل.

وحيث حذرني، بان ذلك لن يكون قبل مرور اسبوعين، اغلقت السماعة وقد طار لبي من الغضب، بقيت امامنا نصف ساعة وتقلع الطائرة.

كنت قد اتفقت مع فرانكي على ان اجتاز حواجز الجوازات، بينما ينهي فرانكي تجهيز حساب هرتز، حتى يتمكن وفي حالة اعتقالي ان يخطر محكمـة العدل العليا. لكنني عدت لانتظر ٥ عند مدخل ختم الجوازات، تأخر اكثر من اللازم، وبينما كان الوقت يمضي بسرعة تنبهت الى حقيبة الاعمال وحقيبتي السفر وايضاً الى كيسي الهدايا.

صدر من خلال مكبرات الصوت، آخر نداء، تلته امرأة في حالة عصبية اكثر من حالتي، للمسافرين في رحلة مونتيفيديو.

اهتزت اوصالي من الرعب، ناولت حمالاً حقيبة فرانكي وورقة نقد كبيرة وقلت له: خذ هذه الحقيبة الى حيث كاونتر هرتز، وقل للسيد الذي يدفع هناك بأنني سألتحق بالطائرة، اذا لم يأت في الحال.

قال لي الحمال: من الاسهل ان يقلع حضرتك في الحال عندها توجهت الى احدى المضيفات التي تعمل في شركة الخطوط الجوية، والتي كانت تنظم دخول المسافرين، قلت لها لو سمحت، ايمكنك ان تنتظري دقيقتين، كي افتش اثناءها عن صديقي الذي يدفع حساب السيارة.

قالت هي: بقيت خمس عشرة دقيقة وتقلع الطائرة. ركضت الى حيث كاونتر هرتز، دون ان اهتم كيف قمت بذلك حيث ان النكد، جعلني افقد رباطة جأش شخصي الآخر، وعدت لاصبح سينمائياً منفعلاً والذي كنته دائماً. كل التحضيرات وساعات التهيئة لي في الاستوديو حيث تعلمت الدقة في التصرف، ذهبت الى الشيطان في دقيقتين، وجدت فرانكي هادئاً جداً، يتجادل مع موظف هرتز المناوب، حول مشكلة استبدال الفلوس قلت له: ياللهول، ادفع له بأية طريقة كانت، سأنتظرك في الطائرة فقد بقيبت امامنا خمس دقائق عملت كل مافي وسعي لاجل ان اهدىء نفسي وتواجهت مع حاجز الهجرة. فحص الموظف الجواز ونظر نظرة ثاقبة في عيني، بادلته نفس النظرة، ثم نظر الى الصورة وعاد ليرمقني، وانا اواصل النظر اليه، سألني: الى مونيتفيديو.

قلت: الى حيث مأدبة طعام امي.

نظر الى الساعة الالكترونية في الجدار، وقال «لقد اقلعت رحلة مونيتفديو، اصريت على انها لم تقلع، حاول ان يثبت ذلك بأن سأل المضيفة الارضية لشركة ـ لان LAN تشيلي والتي كانت تنتظرنا حتى نغلق باب السفر، بقيت دقيقتان ختم المفتش الجواز واعاده لي باسماً، رحلة سعيدة.

ما ان تجاوزت الحاجز، حتى سمعت صوت نداءٍ عبر مكبرات الصوت يناديني باسمي الزائف وباعلى صوت. ظننت انها النهاية، ثم. تذكرت انه يحدث مع الكثيرين، عندما فكرت في ذلك، شعرت باحساس غريب وكأن حملاً قد سقط عن ظهري، لكن فرانكي كان من يناديني. حيث حملت تذكرة سفره بين اوراقي. كان علي ان اعود راكضاً مرة اخرى الى بوابة الخروج، وان اطلب من المفتش الذي ختم جوازي إذناً للعودة واجتياز الحواجز لاحضر معي فرانكي. كنا آخر اثنين صعدا الطائرة قمنا بذلك بسرعة، لم انتبه الى انني كررت نفس الخطوات التي كنت قد قمت بها قبل اثني عشر عاماً، عندما كان علي ان اتوجه بالطائرة الى المكسيك. احتللنا آخر مقعدين شاغرين. عندها احسست بكل تناقضات الرحلة، شعرت بالاسى وبالحقد، وشعرت بمرارة اقتلاع الانسان من وطنه، ولكنني شعرت بانشراح في صدري لان كلْ الذين شاركوني المغامرة، خرجوا منها معافين ودون اي ضرر. اذيع اعلان عبر سماعات الطائرات، لم اتوقعه، اعادني الى ارض الواقع: لو سمحتم ليظهر كل مسافر تذكره سفره، هناك تفتيش دخل الطائرة، مفتشان بلباي مدني، يمكن ان يكونا من نفس رجال امن المطار. حلقت في الخيال طويلاً، وانا اعرف بانه ليس بغريب ان يطلبوا قصاصة الرحيل في آخر ساعة، لاجل التأكد من بعض الفحوصات، على الطائرة. لكن هنا أول مرة تُطلب التذكرة.

هذا يدع مجالاً للتفكير في أي شيء فتشت متعكراً عن ملجأ في العيون الخضراء الملائكية للمضيفة التي كانت توزع قطع الحلوى.

قلت: هذا التصرف ليس طبيعياً على الاطلاق.

قالت لي: آه ياسيد، ماذا تريد ان اقول لك، ان هذا ليس بأيدينا.

سألها فرانكي مازحاً، كما هو دائمًا في لحظات المحن، اذا ما كان

الظلام قد خيم في مونتيفيديو، قالت له بنفس النفحة، بانها ستستفسر على ذلك، زوجها مساعد القبطان. من جهتي، لم اعد احتمل اكثر من دقيقة، وانا اواجه الحياة مختبئاً في داخل شخصي الآخر. شعرت بشيء يدفعني في داخلي، يستنهضني ان اصرخ في وجه المفتش: «فالتذهبوا جميعاً الى الجحيم، أنا ميغيل ليتين مخرج سينمائي، ابن كريستينا وهرنان، لا انتم، ولا احد له الحق في ان يقف حجر عثرة امام حريتي في العيش في وطني باسمي وبوجهي».

لكن في ساعة الجد، اقتصر تصرفي على اظهار التذكرة بكل الهدوء الذي كنت قادراً على التظاهر به، وانا متشبث داخل القشرة الخاصة بالآخر. بالكاد نظر المفتش اليها، واعادها دون النظر في وجهي.

بعد ذلك بخمس دقائق، تنبهت ونحن مقلعون في الطائرة فوق الثلج الوردي على مرتفعات الانديس في الغروب، بان السته اسابيع التي تركتها خلفي لم تكن الاكثر بطولية في حياتي، كما اردت منها ان تكون، لكنها كانت الاكثر اهمية، الاكثر استحقاقاً للتقدير. نظرت الى الساعة: كانت الخامسة وعشر دقائق.

اثناء هذه الساعة، خرج بينوشيت من مكتبه مع رجالات بلاطه الخاصين، سار ببطء في الصالة الطويلة المقفرة، ونزل الدرج البديع والمفروش بالسجاد الى الطابق الاول، يجرجر خلفه الـ ٣٢٢٠٠ متر من ذيل الحمار الذي علقناه له: فكرت في ايلينا وبكل التقدير.

قدمت لنا المضيفة ذات العيون الزمردية كوكتيلاً ترحيبياً، دون ان نسألها قالت لنا: ظنوا ان احدهم تسلل بين الركاب في الطائرة.

رفعنا كأسينا في نخبها قلت: فر اثنان، بصحتك.

* * *

MIGUEL LITTIN

